عصام المناوي



رقصة الچنرال

مدبولى الصغير

(رقصة الجنرال)

إهداء

إلى أستـــاذى العظيم نجيـــب محفوظ مصـــر والعالم.
صاحب الفكر والكلمة والقلم. عرفانا بفضله وعلمه،
أهدى كتابى إليه.

عصام الصاوى

* * *

أولى الكلمـــــات

طوبى لمن حمل خطيئته فوق كتفيه طوال عمره، يدور بها، يكفر عنها، متيقنا من رحمة الله، وأنه عندما يضعونه داخل الأرض سوف يترك خطيئته فوقها. وتعسا لمن يحملها من بعده بجهالة، يعتقد أنه وجد كنزا، فهو قد لا يعرف الطريق فيموت متدنسا بها

الكاتب

رقصة الجنرال

كان تحديه من أجل الحياة.. فالمواقف كان يراها دائما حياة أو موتا، وهكذا كان دائما يجاهد ويناضل كل موقف، وفجأة اكتشف أن هذا قد أصبح مبدأه، ومنذ كان ثروت صغيرا زرعوا فيه روح التحدي، وعندما كبر صار شعاره أكون أو لا أكون، جملة شهيرة اقتبسها لنفسه من مسرحية لشكسبير أعجبته، فحمل الجملة طوال حياته ليحقق ذاته ووجوده ورضاه عن نفسه، وأصبح جهاده هو علمه وهوايته وفلسفته حتى يحس بالإجهاد تماما، فيسعد وهو في قمة الإرهاق لأنه يحلم بالراحة، وعندما يحين وقتها فإنه يستمتع بها تماما ليستريح من كل عناء قابله، ويتمدد في أي مكان ويفرد أطرافه متمتعاً بالهدوء والسكينة ولذائذ الحياة، بدءاً بالمياه الباردة التي حلم بها وأكلة دسمة ظل يفكر أن يحصل عليها عندما يرتاح.

عندما كبر ثروت أصبح ضابطا، وكان حلمه أن يكون قاضيا، ولكن وجد الطريق إلى هذا شاقا للغاية بين الكتب السميكة ونصوص القوانين التي أزعجته، فهرب من حلمه ليقف في الصف يتعلم فنون القتال، ثم يمارسها بعد ذلك في حروب قاسية متتالية، صهرته مع مبادئه فصار بعدها صلبا لا يرضى إلا أن يهزم عدوه في معاركه باليمن والنكسة والاستنزاف حتى حرب التحرير الأخيرة.

زملاء ثروت كانوا يغارون من نجاحه، ويحاولون دائما أن يقلدوه ولم يهاجموه، وجنوده كانوا يعجبون به ويتمثلونه قدوة لهم، ويتحدثون كثيرا فيما بينهم ويتساءلون: ما الذي يجعله هكذا دائما ولماذا لا يبتسم، وأكثر عجبهم أنه لا يستريح كأنما يحارب باستمرار، وثروت يراهم وقد يسمع أحاديثهم ولا يتعجب، فهو يدخر الابتسامة لأيام المرح القادمة.

وكما عشق ثروت المجهود والإجهاد، عشق راحته ورتب لها الوقت والمكان ليستمتع، وقرن الراحة بالمرح وعرف كيف يمرح دائما بعيدا عن زملاء العمل في أيام الإجازات، وأصبح شعاره الراحة والمرح ليعيش حياته جادا معظم الوقت، ولما مرت السنوات وكبر ثروت أحس الوحدة، وحن لأن يكون له أسرة كباقي الخلق، تساءل كيف ومتي سيجد من تحب هذه الحياة المتقطعة، وكيف سيجد زوجة ترضى بأربعة أيام كل شهر. كانت هذه مشكلته في السنوات الأخيرة قبل زواجه، فزاد لنفسه جرعة الراحة والمرح حتى يستطيع أن يفكر ويختار زوجة الأربعة أيام.

قال القدر.. لابد أن يتزوج ثروت من سوزان. فوجدها أمامه. ولما كان قلبه خاليا فقد كانت الكلمة لعقله، ثم اتفق مع أبيها بعقله أيضا، وحاول أن يحبها بعقله.. وهكذا تم الزواج لينجب منها طفلا وطفلة أسماهما شمس وقمر، وصبر علي تهكمات وابتسامات الأقارب والأصدقاء. وكبر أولاده.. أولاد الأيام الأربعة، في حضن سوزان يرضعان منها كل أمور الحياة، وعندما يحضر ثروت في إجازاته فإن له الباقي.. المرح والراحة، أو قد يستبدل فيكون الراحة والمرح، وفي كلتا الحالتين فإن الطفلين كانا يسعدان بوجوده بينهم، فإن الوقت لا يتسع أبدا للوم والعتاب أو العقاب الذي كانت أمهما تخيفهما به، وأحبا أباهما ولا يريانه إلا نائما أو ضاحكا، ويصحبانه في نزهات كثيرة الي كل مكان.

ويرقب ثروت أولاده وهم يكبرون حتى بدت معالم الأنوثة علي طفلته قمر، وأحس أنه أصاب أن سماها هكذا، فمثلها سوف يتصارع عليها الشباب. فهي جميلة جذابة يحبها كل من يراها، كان يراها رقيقة وادعة. يذكر عندما كانت قمر صغيرة أنه وجدها مرة تنثر السكر علي الأرض، فلما سألها قالت أنها تضعه للنمل حتى يجد رزقه بسهولة، وأخري عندما بكت لما وجدت العصفور حبيسا ولم تسعد به، وأحب فيها حنانها ورقة إحساسها، وتوسم لها الخير وتطلعت آماله إلى يوم يزوجها فيه، وأن يمد الله في عمره حتى يري هذا الأمل يتحقق، فستكون جائزته الكبرى وفرحة عمره، ويسرح بتفكيره في ترتيب مواقف هذه الأيام. أما شمس فقد كانت تظهر عليه علامات الذكاء، يراه لماحا وقد أخذ منه سمرة لونه، وعينيه القويتين والجسد الرياضي، واستطاع ثروت أن يبث فيه روح المبادأة والشقاوة، ثم ندم علي ذلك قليلا عندما خط شارب شمس وبدت رجولته، فتحركت عيناه منصرفا عن رياضته، وتنازل عن بطولته فيها، واهتم أكثر بالبنات والأغاني، وقليلا بالدروس. ولم يقلق ذلك ثروت كثيرا، فما زالت أمامه الحياة، يحس أن ثروته هي شمس وقمر عماد مستقبله في أيام يحتاجهما فيها، ويطلب من الله هدايتهما له دائما، وأن يراهما سعداء ويداعب أحفاده منهما. كانت هذه أقصي أمنيات ثروت.

في شطحة من شطحات ثروت انتابته الرغبة أن يرقص، وأحب فكرته فراودته في أحلام يقظته، سعيدا يري كل شيء ملكه قانعا بما عنده، فقد أفاض الله عليه الصحة والمال والزوجة، والأبناء والجاه ورضاه عن نفسه، فلماذا لا يرقص فرحا، ورقص في خياله، وحار كيف يجعل حلمه واقعا، فإن ذلك سوف يحرجه أمام الناس. يريد أن يرقص ويخاف أن يروه. اذا ليس هناك إلا أن يرقص وحده منفردا في الحمام أو غرفة نومه عندما لا يكون هناك أحد. ووجد ذلك سخيفا، فإنه سوف يرقص كأنما يهلوس وطاقة يفرغها في لا شيء، ثم وجد أن يؤجل الفكرة بضع سنوات حتى تكبر قمر، وساعتها سوف يرقص أمام كل الناس فلن يخجل. نعم ساعتها سيكون جنرالا متقاعدا لا تقيده الرسميات، وستكون قمر بجوار عريسها في الكوشة. ثم إن التأجيل سوف يعطيه الفرصة

لأن يتدرب علي الرقص بالعصا فإنه يحب هذه الرقصة، واحتفظ بحلمه في ذاكرته يستدعيه ويضيف إلى حركات الرقص ما يراه مناسبا، ويدخر كل ذلك لليلة زواج قمر.

أما شمس فكانت خطواته إلى الرجولة ترضيه، وعبثه يراه طبيعيا، ويعجبه فيه عناده وقوته وشهامته مع أصدقائه، ولم يسمعه يكذب أبدا، ويبتسم ثروت لنفسه فإنه هو نفسه كذلك ويري شمس امتدادا، وتنبأ له بمستقبل باسم وأحب أن يراه قاضيا يحقق به حلمه الذي كان.

ثروت متعود علي السفر ولا يطيق أيام الإجازة الطويلة، وإدمانه للمجهود والعمل والفكر زاد بحكم مسئوليته التي تطورت وكبرت بعد أن أصبح هو الآخر كبيرا، وظهرت الشعيرات البيضاء في رأسه، واحتاج لنظارة عندما يراجع خطط وخرائط التدريب، وبعد أن زادت نجومه التي يحملها فوق كتفيه لتصبح كثيرة براقة تجذب الانتباه والاحترام، وظل يتقافز من حرب لأخري ومن نجاح إلى نجاح، وحقق دائما ما أراد، فقد كان الفشل يمثل له الموت، يتخيل أنه لو فشل مرة واحدة فإن حياته سوف تنتهي تلقائيا، فهو لن يتحمل صدمته أبدا، ولم ينس ثروت في سنواته التي مرت حالات الراحة والمرح، وظل يرتب لها فهي وقود حياته تدفعه للأمام دائما.

سوزان زوجة ثروت كانت من البداية ملولة لا تطيق الأمور الرتيبة في حياتها، وتحاول التغيير، وباستمرار تتمرد علي القيود التي تفرضها الحياة عليها، فكانت تحاول أن توسع الدائرة التي تعيش فيها وتتعرف علي أناس جدد سرعان ما تملهم أو يملونها، وينشغلون بأمورهم، وتدريجيا انحسرت اهتماماتها عن بيتها والأولاد في غيبة ثروت الدائمة، فانعكس ذلك علي شمس وقمر فتراخت اهتماماتهم بأنفسهم حتى أتت أواخر الأعوام بملاحق ودرجات ضعيفة، ليقضوا شهور الصيف في إعادة المذاكرة ومحاولات النجاح، وعندما دخلوا المراهقة اهتموا بمثل ما يهتم به من في سنهم، فدخن الولد وانساق مع الرفاق، وقمر اهتمت بأنوثتها مبكرا تحاول لفت النظر، وبدأت الأسرة تتجه إلى قاع وعاء المشاكل التي تنتج عن هذا الارتباط الذي بدأ يتفكك .

طالت الأيام والشهور والسنوات علي سوزان زوجة ثروت، فرأت المشيب والجفاف، وهاجمتها متاعب الأربعين، فزاد تمردها علي نفسها أولا ثم علي واجباتها، وأولادها، وأخيرا استجمعت قواها لتتمرد علي زوج الأربعة أيام. تمردت علي ثروت وقارنت حياتها بكل من حولها لتكتشف ضياع عمرها ووقتها ومجهودها في أشياء لم يكن هناك لزوم لها في رعاية الأولاد والاهتمام بالبيت الذي أصبحت أخيرا تكره أركانه والأشياء التي يحتويها، حتى امتد كرهها وغضبها إلى ثروت لتواجهه وتبدأ معه معركة تخوضها لأول مرة، بل هي

المعركة الأولي في حياتها.. ضد الجنرال..!!

لم تكن هذه المعركة لتشغل ثروت فهي زوبعة في فنجان، سرعان ما تهدأ وليس لها تأثير.. هو رآها كذلك، ورأتها أنها معركة حياتها، وأسقطت من حسابها أنها زوجة رجل تمرس علي فنون القتال، فتركها تستنزف قواها في مناقشات نتائجها معروفة مقدما، فلابد أن ينهيها قبل مرور الأربعة أيام أو علي الأكثر صباح يوم سفره، أو قد ينهيها بمكالمة من عمله، ولكن يبدو أنه كان متفائلا أكثر من اللازم، وتخيل أنها مواقف مؤقتة، في الوقت الذي كانت فيه احساسات سوزان تتوتر وتتورم أكثر كلما ماطلها في نقاشه أو معاركه الكلامية معها، ولم تقنع سوزان بالانتصارات المؤقتة في النقاش الذي دام الخمس سنوات الأخيرة، علي أقساط شهرية، أربعة أيام كل شهر، ليجد كل منهما حصيلة ما حدث بعد الوقفة الأخيرة في جعبته هموما كثيرة حملها له الطرف الآخر، وازداد كل منهما ابتعادا وكآبة، لجأ بعدها ثروت الي التفكير في زيادة مساحة الراحة التي تلزم ليفكر في أحداث سوزان المتلاحقة والمتصلة من سنوات مضت، ولا يجد إلا أنها ملولة تطلب التغيير، ووجدها لا ترضي بأي شيء مطلقا حتى أصبحت عنيدة صعبة المراس، مكتئبة باكية دائما، وتقلص مرحه كثيرا مع نفسه والآخرين أيضا الذين أصبحوا شبابا الآن هم شمس وقمر يلاحظون زوابع سوزان المستمرة والمتقطعة، والتي تبدأ بوصول أبيهما الي أرض المعركة.. بيتهم الذي عاشوا عمرهم فيه، ليحسوا أن الأرض أصبحت غير ثابتة تحت أقدامهم، وغادرتهم هم أيضاً روح المرح والتفاؤل التي كانوا يتمتعون بها.

هموم ثروت وطموحاته في عمله كانت بلسما له من هموم زوجته ينساها بها، ليزداد نجاحا وتألقا وتختفي من وجهه علامات الانبساط والراحة والقناعة، وأصبح جامدا بالفعل داخله وخارجه، حتى حل عليه الدور بعد زملائه السابقين، أن يخلع ثوب الجنرال وعلاماته الملونة، ويترك سيارته ذات السائق والحارس، ويبتعد عن الميدان ليتركه للجيل الشاب الذي يخلفه، وليلحق بالآخرين في النادي تحت شجرة كبيرة، رآهم يجتمعون تحتها في دائرة ظل تسعهم جميعا، مع ذكرياتهم عن مواقفهم وحروبهم يستعيدون ذكريات السنوات التي صنعوا فيها أمجادهم، ثم يتحول حديثهم لانتقاد الأوضاع والناس، ويمصمصون شفاههم علي أيام جميلة مضت ولن تعود.

ثروت رفض الفكرة والموقف والشجرة، فلن يبقي تحتها حتى ينعوه فيما بينهم، فهم يفعلون ذلك كل يوم، فهناك دائما خبر عمن مرض أو مات ثم يحملون الأمراض والصحة والظروف والنصيب السبب في الموت، ولكنه يعرف السبب في مرضهم وموتهم، إنه الفراغ والحسرة، ولن يفعل مثلهم أبدا، وانطلق يبحث عن شيء يفعله فمازالت أمامه سنوات كثيرة ليتقاعد بالفعل عن الحياة.

سوزان لسانها سليط، نسيت أيامه وسنواته، وعايرته بالفراغ وأن الرؤساء تخلوا عنه بعد ما ظهر لهم عدم جدوى بقائه في صفوف الجيش تدفعه للنقار والشقاق، تفرغ حيرة أيامها ومللها فيه، ثم تختفي لتذهب لعملها وعماتها وخالاتها والأصدقاء، وتعود قبل منتصف الليل، فالكل لابد أن يستغني عنها، فقد كبر الأولاد، وهو خارج البيت ليل نهار هو الآخر، وانفصلا لا يتلاقيان آلا مساء في سرير ضيق لا يسعهما مع همومهما، فيوسعان لها مكانا في المنتصف، ويحتل كل منهما الطرف البعيد منه حتى الصباح، تحاشيا أن يتماسا، فقد تحدث شرارة إيذانا بمواجهة مسائية صعبة لكليهما، ثم ينطلقان صباحا كل منهما في اتجاه.

قال ثروت: لابد من وقفة لإعادة الحسابات وإعادة شحن العواطف والذاكرة وإعادة ملء الحياة بالمرح مرة أخري ليستعيد لذة الراحة بعد أن فقدها من سنوات، وأعاد الحسابات وجهز أفكاره للانطلاق والسهر والرحلات، ولكنه أخطأ التقدير والتفكير هذه المرة، فقد كانت سوزان قد خرجت بالفعل من مدي أسلحته التي تعود استخدامها، ثم ماتت محاولته وأفكاره عندما رفضتها، واستغلتها مادة للتندر والفكاهة والسخرية، وكبداية لنكد من نوع جديد بنبرة جديدة عليه، وكان ذلك كأنما تستخدم سلاحا جديدا لأول مرة في معركتها. وحاول ثروت أن يجد شيئا بين الكلمات أو ثغرة في موقفها الرافض ينفذ منها إلى قلبها دون جدوى، وأحس أنه قد خرج بالفعل من دائرة اهتمامها، واكتشف أنه كان يناضل الفترة الأخيرة من أجل أن يجذبها إلى حياة البيت بحبل كانت هي قد تملصت منه منذ أن خلع ثوب الجنرال.

يوما في نقارها المعتاد قالت سوزان أنها تزوجته لمدة سنتين ونصف فقط، فقد حسبت أيامه التي كانت تراه فيها أربعة أيام كل شهر عشرين عاما، وهكذا فإنها تري أن هذه الفترة لم تكن كافية لكي يفهم كل منهما الآخر جيدا، وبعد هذه السنوات وجدت أنها أخطأت بقبوله كزوج، وأن أهلها أيضا أخطأوا، وأن الأولاد كانوا نتيجة هذه الأخطاء، ولم يكن لها يد في كل ذلك، وأنها قدمت كل ما استطاعت أن تقدمه، وتركت لهم عشرين عاما من حياتها وشبابها كرستها لهم، والآن بعد أن نضج تفكيرها عرفت ما تريد. تريد الخلاص لتستمتع بالدنيا التي ليسوا فيها فقد ملتهم، قالت ذلك وأضافت الكثير، وأنها رأت الأخريات يعشن بطرق مختلفة أكثر بهجة وإشراقا، وأنها تطمع أن تكون مثلهن، وأن ثروت وأولاده لن يحققوا لها ذلك حتى ولو أفنوا عمرهم يلبون احتياجاتها، فهم لا يفهمون. فيضان أفكارها دفع أمام ثروت بأطماعها في الثروة والمال، ووجد أنها تريد أن يكون لها المال والبيت والسيارة وأشياء أخري كثيرة يملكها، وألمحت إلى ذلك مرات عديدة تلمح بالاستقرار والارتباط إن هي حازت الأشياء، ووجد ثروت أنه لو منحها إياها فإنها ملولة وقد بان غدرها، وعند أول بادرة فإن البيت سينهار، وتنطلق بعيدا بالأشياء والمال، وأن مناورتها قد باتت

واضحة، وأغفل من نقاشه هذه الأشياء وأسهب وأفاض ولامها أنها لا تراعي فروض دينها، ولا تقاليد مجتمعها، وأن قلبها قد غادرته العاطفة للأبد، فلم ترتبط بإنسان، لا أبيها ولا ابنها ولا صديقة لها، وهو لا يلومها أنها لا تحس الارتباط به، فإنه يدرك أحوال القلوب وتقلبها وابتعادها، وأنه يلاحظ جفاف عواطفها ويدرك مأساة الأربعين التي تكابدها، وأنه مخلصا حاول وسيستمر في المحاولة أن يخرجها من أزمتها هذه.

في حسابات ثروت لم ينس أنه تزوج سوزان بعقله، وأنه أيضا بالعقل أحبها ثم كره أفعالها، وبدأ يكرهها هي ذاتها، وأن مجهوده معها كان يتركز في إبقاء الحياة كما هي، آملا أن ينصلح حالها يوما. سوزان كابرت ورفضت وجاهرت بطلب الطلاق، وصبر ثروت لا ينفد. ولكن سوزان لم تنتظر أن يصبر عليها، وهجرت البيت شهورا تدفعه للملل وأن يطلقها، فلما لم يفعل عادت لتهاجمه بشراسة ووحشية أكثر. غلطة العمر احتوت ثروت ولم يستخدم ذكاءه ولا خبرة القتال عندما يدفعه العدو ليثيره، فيظهر أسلحته وخططه. نسي ثروت ذلك كله وكأن غمامة سوداء حطت فوق عقله وعينيه، فلم يعد يري شيئا عندما هاجمته، فألقي إليها ما طلبته ليتخلص من هجمتها، وانتصرت سوزان حرة طليقة مطلقة، واصطحبت معها ابنتها قمر لتدخل معها حياتها الجديدة. ولم يكن ثروت ليقدر علي المعارضة، فقد كبرت قمر ومن الصعب إقناعها بعد أن تشربت من أمها الكثير من أفكارها وطباعها وطريقتها، حتى أنها هاجمته هي الأخرى، وعز علي ثروت ذلك فتركها لها.

صدمت قمر أباها عندما انحازت لأمها وتركته يحاسب نفسه عن الأخطاء في حقها والتي دفعتها إلى قرارها، ولم يجد ثروت مبررا لفعلة قمر، ووجد أنها أهانته برفضها له وتراجعت آماله فيها وتراجع حلمه أن يرقص في حفل عرسها كثيرا إلى الوراء حتى تلاشي تماما، وإن بقيت رغبة دفينة أن يرقص يوما الرقصة التي تدرب في خياله عليها سنوات طويلة، ثم بدأ يحاسب نفسه علي ما قدمه لقمر في أعوامها القليلة التي هي عمر زواجه نفسها، ويعدد ما فعله من أجلها، ولكن وجد أن ذلك يفعله دائما الآباء، ويفضلون أولادهم علي أنفسهم ورغباتهم حتى يعيش الأبناء سعداء، ولكن لم يكن ذلك هو أساس حسابه لنفسه، فأيضاً كما حسب ما قدم، حاول أن يجد شيئا لم يقدمه لها وقصر فيه، ولم يجد سوي أن فعلة قمر ما هي إلا وجه آخر لفعلة أمها، فكما كانت جاحدة ملولة، نشأت قمر مثلها، وزال عجب ثروت فإنه ربي رجالا كثيرين ونجح في ذلك ولم يستطع أن يربي فتاة واحدة كما أراد. وقرر ثروت ألا يعترض طريق قمر بعد أن اعترف بفشله، وتركها لأمها وللأيام تداعبهما بطريقتها، وقرر ألا يفتح قلبه لهما مهما كان ولن ينسي لكلتيهما ما فعلتاه. وكما كان قرار القدر أن يتزوج، كان قراره بالفراق، ولا يهم السبب والدوافع، فهذا قرار القدر ونفذ، ووقف يرقب باقي الأيام وحوادثها، وأشفق علي ابنته بعد أن انضمت لأمها

ليتطابق تفكيرهما معا وتنزلق إلى نفس ما انزلقت إليه أمها، أشفق علي قمر أن تعود إليه يوما بعد فوات الأوان باكية نادمة تحمل طفلها فوق صدرها، وساعتها لن يستطيع مساعدتها أبدا. وحتى لو حاول الآن فإنه لن يستطيع أن يضمها إليه أو ينصحها فلن تسمعه أو تقتنع بحديثه بعد أن رفضت أبوته لها، وأسقطها من حسابه أن تعود إليه يوما.

عاد ثروت إلى هوايته القديمة.. الراحة والمرح ولكي يحسها، فإنه يعرف الطريق فيستغرق في العمل حتى يتعب ودفعه ذلك الي النجاح في تجارة له، ولذت له الأيام وابتسمت وكسب المال الكثير الذي عوضه عن فقد نصف بيته، فتزوج وعاش هانئا لا يشغله من الأمور القديمة شيء وانطلق في حياته مرضيا يري باقي أمله يكبر ويزدهر وابنه شمس يساعده ويعاكسه أحيانا ويدخره للزمن.

يوما صديق ثروت دعاه لعرس ابنته، ودون أن يدري وجد ثروت نفسه وقد تقمصته روحه القديمة وارتدي أحسن ملابسه وتعطر وانضم للحفل يحس البهجة والفرح، وانساق في أحاسيسه منطلقا، وأطربته الموسيقي فقام وسار حتى ذلك الرجل وأخذ عصاه، ومضي وسط الناس ورفع العصا يشير إلى الفرقة الموسيقية أن تقدم اللحن المناسب.. ورقص.

رقص ثروت رقصة عمره التي حلم بها، ولف ودار ورفع عصاته وخفضها في رشاقة تدرب عليها في خياله سنوات عمره، وتقدم حتى العريس وابتسم له، وتحول إلى العروس ابنة صديقه، رآها رقيقة وادعة، جميلة كالقمر جذابة.. أحبها لحظة رآها، ووجدها باسمة فرحة تصفق علي الواحدة واستخفه الحماس، فأجاد الرقص وأطال، وأوسع له الحاضرون مكانا يصول فيه، مشجعين ذلك الرجل العجوز ذا النشاط الفائق والتدريب العالي علي رقصة التحطيب حتى حسبوه من أقاصي الصعيد، وآخرون خمنوا أنه والد العروس ففرحته كانت طاغية، ودمعة معلقة في عينيه فقد تملكه الوهم أنه يرقص لقمر في ليلة عرسها.

***

كلمات ولسان و.. !

نعم.. لسانها طويل وعريض تستخدمه في أشياء كثيرة يفعلها كل الناس بالطبع، ولكنه اختص في مواجهتي بمهارته الفريدة التي لم تصادفني مع أي من البشر سواها، ليثير أفكاري باستمرار فتخرج كلماتي معبرة عنها، أو يتحرك جسدي في اتجاهات لا أتوقعها، ليزوغ هاربا ويحمي الأذنين والوجدان من هجماته الشرسة.

السيدة السمينة جالسة في ظل حائط منزل قديم، وأمامها رصة من "الكوارع البتلو والعجالي"، واناء كبير به "الطحال والفشة والكرشة"، وعلي ارتفاع قامتي علقت مجموعة من ألسنة الذبائح. طافت عيناي علي كل ما كان حولي، لكنها توقفت عند السيدة السمينة، ثم ارتفعت نظرتي وتعلقت بلسان ضخم ربما كان لبقرة أو جمل، وراعني طوله الكبير ولا أدري لماذا تذكرت لسان عصمت التي تنتظرني في السيارة علي أحر من الجمر، لتتلقف لفة اللحم الذي اشتهته.

مددت يدي علي استحياء أتلمس اللسان الكبير، ووجدت السيدة السمينة تخاطبني في حنان بالغ بلسان رقيق، أنها سوف تبيع لي ما أتمنى وتخفض الثمن وتنتظر اشارتي، ولعلها تمكنت مني عندما رأت إصبعي تطوف فوق اللسان تتحسسه، وحاورتني ولذ لي أن أطيل الحوار لأستمع إلي كلماتها البسيطة تعرض بضاعتها وتغريني بالشراء، وتنصحني وهي جالسة أن أترك اللسان الكبير وأشارت إلى آخر أصغر منه، ولعلها كانت سعيدة فكان كلامها باسما سهلا عندما كانت تشرح كيف أطهو اللسان حتى يكون شهيا، قالت: نادني يا أم السيد.

أعرف أن الكلمة كانت هي البداية، حرفان فقط ثم كان الكون، الكلمة كانت فكرة، توحدت مع الإرادة، فإن رفضتها انعدمت، وإن قبلتها تحرك اللسان ونطق، لتصبح الفكرة كلمة تترجم إلى المعاني أو الحركات. وعندما تخرج الكلمة فإنها تصبح غير مملوكة لصاحبها، مشاعاً للجميع، وعلي صاحبها أن يتلقي ردود الفعل تنعكس عليه، تفيده أو تضره، تسعده أو تشقيه، ليبدأ التفكير ثانية وتخرج كلماته مرة أخري عبر اللسان.

في سوق الوراق بامبابة علي الطريق مباشرة، ينتشر الجزارون عارضين اللحوم للناس وهم مارون في سياراتهم، يغرونهم باللحم اللذيذ والسعر المنخفض ليقفوا ويشتروا. نزلت من السيارة لأنفذ كلمات لسان عصمت زوجتي الذي صرح بأنه من المفيد الشراء الآن حيث إن هذا الصنف لم نستخدمه من أسابيع، وقد آن الأوان لتحتفل ثلاجتنا ببعض منه فيها ومعداتنا، وكذلك اللسان

فلم يتذوقه من فترة، ويجب أن يستعيد مذاق اللحم من جديد، حتى تعود إليه طلاقته وحيويته. صاغرا حسبت الجنيهات في جيبي وبسرعة فتحت الباب ونزلت.

قالت أم السيد ولسانها يقطر حلاوة.. الإنسان لسان »والملافظ سعد يا أستاذ« وأنت كلامك عسل. غازلتني لأشتري، قالت »والنبي تشتري مني« أريد أن أستفتح منك، لم أكن قررت الشراء منها ولكن كلماتها وعينيها أسرتني تماما. ثنيت ساقي لأجلس القرفصاء في مواجهتها، أقترب منها أكثر لأستطيع استيعابها. وجهها مدور سمين وعيناها عسلية مصرية لماحة شقية بنت سوق، وكما لو كانت نومتني مغناطيسيا، فانجذبت إليها أكثر، أسمع ما تقول عن اللسان، وعيناي متعلقتان بوجهها، أرقب لسانها ينطق الكلمات من شفتيها سهلة مقنعة. قالت أم السيد بائعة اللسان بعد أن وثقت بي واستلمت النقود تقترح أن أنتظر للغد، فسوف تعد لي لسانا طازجا جيدا فتركت لها النقود ومشيت أتلفت إليها لأجدها مهتمة ببضاعتها ثم مضيت لأشتري اللحم الذي اشتهته زوجتي.

قفزت إلى خيالي صورة أم السيد بوجهها الأسمر المدور بعينيها العسليتين ونظرتها الودود، وكلماتها الرقيقة ولسانها الذي يقطر حلاوة. هل تعلمون كيف كان شكل لسانها وهي تحدثني؟ كان صغيرا أحمر اللون يتحرك في هدوء، كما لو كان يفكر قبل أن يتحرك، فلما تحرك قال كلمات جميلة لم تجبرني أن أسمعها، بل انسابت الكلمات إلى أذني وعقلي تدغدغ عواطفي. سأراها غدا وأسمع كلماتها مرة جديدة. قفز في حلمي الجميل لسان عصمت علي حين غرة رغم أنها كانت بعيدة، قفز اللسان ليقف إلى جوار لسان أم السيد موقف المقارنة الظالمة لي أنا بالطبع.

بينما أنا جالس في الشرفة مساء ذلك اليوم تذكرت اللسان الصغير الذي دغدغ عواطفي في دفء بكلماته الحلوة الرقيقة وتمنيت لو كانت صاحبته هي عصمت، تتحرك برقة وتتكلم بحنان وتسألني عما أحب، وعما يضايقني، ككل زوجات الآخرين. لا أدري كيف استطاعت أم السيد أن تأسرني هكذا، وتداعت أمامي أيامي الماضية المليئة بحكايات الألم والهموم، وتعلقت كلها بذلك اللسان السليط دائما، ولم أجد سوي الاستسلام يريحني من مواقف أكبر وأصعب، ولكن حتى متي سأستطيع الصمود؟!

حدث ما أتوقعه دائما، فقد هاجمتني عصمت وانطلق لسانها يلوم ويوبخ ونادتني بالفالح والناصح والشاطر والمحروس إلى قائمة نداءاتها الساخرة اللائمة المبكتة دائما. انطلق لسانها »كالكرباج السوداني« المنقوع في الزيت بأطرافه الخمسة التي ينتهي كل منها بعقدة صغيرة تلسع وتدمي في كبرياء زائف، يعتمد علي الإمكانيات المادية والمعنوية والأسرية، ضاغطا علي كرامتي وكبريائي أن أتحمل. المهم أنها استلمت اللحم وقلبت فيه وهي بالمطبخ،

ومع كل قطعة تضع وساما جديدا لقوة تحملي وصبري البالغ المتانة.

بدا لي اللسان الطويل غليظا متجهما عندما تحول إلى شكله الذي أعهده فيه دائما سوطا ممتدا مخيفا.. آه منه. لقد أجبرني أياما وليالي، شهورا وسنوات أن أكون طرفا رئيسيا في جلسات الاستماع والاستجواب، مقيدا فيها إجباريا بالصمت والسمع، مطرقا وسارحا، متحملا فيضانات ألفاظه الساخطة والمتشائمة، وتلك الأخرى الجارحة. صابرا حتى تفرغ. ولكن كثيرا ما كان يخيب أملي أو ينهار عندما يكرر ما يقول ثم يعيده ثانية، ويعود ليقوله ثالثة ليؤكد أحكامها النهائية حول قدراتي المحدودة، وفهمي الضحل، الذي لم يرق أبدا لمستوي الذكاء النادر الذي تتمتع به صاحبته والذي قد لا يتكرر مرتين في القرن العشرين، فصاحبته سليلة البيوت الراقية أجمل الجميلات. وكان حظي عظيما عندما فزت بها، لما تخلي عنها الحظ ووافقت أن تتزوجني في لحظة جانبها فيها التقدير، لتندب باقي العمر علي ما تبقي منه إلى جواري في أذني سرا وعلانية، أمام الكبار والصغار. وأنه يجب أن أحمد الله دوما، فلدي ثروة يحسدني الجميع عليها رجالا وقبلهم النساء، اقتنصتها في غفلة من الزمان، ويجب بعد حمد الله أن أسبح بجمالها، مادامت عيناي مفتوحتين وحتى أغمضهما للمرة الأخيرة.

استعدت الكلمات الرقيقة عندما كانت أم السيد تحكي وتعلمني أن أطهو اللسان، قالت أن أسلقه جيدا مع البصل والحبهان وقليل من الملح قبل النهاية، ثم أزيل قشرته الخارجية وسوف تنفصل عنه بسهولة وهو ساخن، وأتركه حتى يبرد ثم أقطعه رقائق رفيعة وأرصها في الطبق، وأزينه بقطع الطماطم والفلفل الأخضر والخيار، وبالهناء والشفاء يا أستاذ، وبسمة عريضة تنتظر أن أشكرها علي معلوماتها القيمة.

بعد أن غسلت اللسان جيدا من الدماء العالقة به، وضعته مع بصلتين وبضع حبات من الحبهان كما قالت أم السيد، كل ذلك في إناء صغير فوق الموقد ووقفت أرقب حتى غلي الماء جيدا، وبواسطة الشوكة اختبرت لحم اللسان، فغاصت الشوكة فيه، فعرفت أنه نضج بما فيه الكفاية، وأضفت من الملح ملء ملعقة شاي صغيرة، وانتظرت دقيقتين ورفعت اللسان من الشوربة ووضعته في الطبق.

تذكرت ليلة زفاف ابنة أختها، عندما ارتدت أجمل فساتينها واستعدت بتسريحة جديدة دفعت فيها أقل من نصف مرتبي قليلا، ووضعت من الألوان ما استطاعت فوق عينيها وخدودها، ورموشا لصقتها علي جفونها، وزجاجة عطر كنت أهديتها لها يوما تقربا ودرءًا لخطرها أفرغتها علي ملابسها وجسدها. فاجأتني ليلتها بصورتها الجميلة الأنيقة التي يفوح العطر منها، ورغم افتتاني

الواضح بها فقد تجاهلت كلماتي التي أتلمس بها رضاها. عندما كان الحفل في أوجه أخذتني جانبا، وأخذ لسانها يجمع من الألفاظ ما جعلني أتقوقع للداخل مرات كثيرة متتالية، حتى أحسست بالضآلة عندما قارنتني بالرجال أحدهم بعد الآخر، من أول ربطة العنق وتسريحة الشعر إلى رباط الحذاء والحذاء نفسه.

كنت أستطيع أن أتفادي كل ذلك لو كنت أنانيا واشتريت لنفسي بعض الملابس، ولكني كنت أوثرها علي نفسي وأشتري رضاها. انطلقت بعيدا عنها وعيناي عليها حتى رأيتها حطت إلى جوار أحدهم تختبر صلابته بتأثيرها عليه، وضحكاتها تملأ أذني غيظا وكمدا، ولم أصدق عيني عندما فك الرجل رباط عنقه ولفه حولها يربطه علي أردافها، لتتراقص أمام الجميع، وجمد الدم في عروقي، والدمع في عيني، لأنصرف علي الفور قبل أن يوجه أحدهم نظرة نحوي، ولأني مهما أوتيت من القوة فلن أستطيع أن أمنعها.

انسحب ذلك عليها بعد أن عادت فلم أجرؤ أن أحاسبها علي فعلتها واكتفيت بالنية المحبوسة ألا أدعها تحضر مثل هذه الأفراح. آه.. رفعت السكين لأضغط مرة أخري ساحبا إياها لأفصل شريحة أخري من اللسان وتتداعى الذكريات في راحة تشملني.

فجأة سقط من يدي السكين الصغير وانحنيت لألتقطه، ولاحظت الدم يكسو الأرض متناثرا حول الموقد ودولاب المطبخ، ولم أعر الأمر اهتماما فقد كان كل تركيزي أن أقطع اللسان شرائح صغيرة، متعجبا أني وجدت أن حجم اللسان أصغر مما كنت أتوقع، فقد انكمش طوله كثيرا، وأصبح حجمه عاديا ككل لسان. بينما كان السكين يغوص في لحم اللسان تذكرت الصيف الماضي في بدايته عندما أصرت عصمت أن نسافر إلي الإسكندرية، رغم اعتراضاتي أني لا أملك مالا يكفي لهذه النزهة بالغة التكاليف، إلى جوار ملابس العيد وعيديك الأولاد، والإصلاحات اللازمة للسيارة حتى يمكن أن نسافر بها في أمان. ظلت تلح.. لا.. ظل لسانها يلح بطريقته المعهودة، وخضعت صاغرا لتمر علي أيام النزهة كلها أعد الأيام أحسب يوم العودة، وأتمني سرعة قدومه، لأنه لم يكن هناك مجال لأهرب من اللسان بعض الوقت حتى أستريح، وضغطت بالسكين لتنفصل شريحة جديدة منه أزيحها إلى جانب وأرفع السكين استعدادا لفصل شريحة أخري.

كنت منهمكا في رص قطع اللسان في الطبق عندما سمعت القطة تموء تعلن عن جوعها فأشفقت عليها. ألقيت لها قطعة صغيرة من اللسان، فشمتها ورفعت رأسها في ضيق. خمنت أنها اكتشفت زفارة اللسان، وانحنيت عليها أحاول إطعامها إياه فتقبلته علي مضض. لا أدري ماذا كان طعمه في فمها، فلم أتذوقه بعد، وانتهت القطة من القطعة الأولي وقالت »نو ثانية«. فهمت أنها تطلب المزيد وأنا قلبي رقيق، واستغلت القطة رقة قلبي. وكلما انتهت من قطعة قالت

كلمتها الأثيرة عندي والتي تحرك عواطفي دائما نحوها، فهي الوحيدة في هذا المنزل التي أبثها همومي وتسمعني ولا تقاطعني ولا تتجاهلني أو تصغرني أمام نفسي، فلم أحس بالإحباط وأنا معها قط. هكذا فوجئت عندما مددت يدي لألتقط قطعة أخري من اللسان أن القطة قد أتت عليه كله، وقلبت لها الطبق لتري واقتنعت، فاستدارت خارجة من المطبخ قائلة: »نو«.

حدثت جلبة كبيرة وأصوات غريبة، ودخل رجال كثيرون أحاطوا بي، كلهم يتكلمون ولم أفهم شيئا مما يقولون، فقد تداخلت الألفاظ مع الحركة والنظرات، ولم تكن هناك فرصة أن أفهم الموقف، وركبت معهم سيارتهم الكبيرة متعجبا من الجنود المتحفزين وذلك الضابط الصغير الذي لم يرفع عينيه عني أبدا. مرت أيام كثيرة متشابهة، وكلهم يسألون ماكرين أو متصنعين المكر يحاولون أن يعرفوا مني أشياء لا أعرفها أبدا، ورأيت رجالا ونساء كثيرين عندما كانوا ينقلونني من مكاني إلى مكان آخر، وأم السيد لم تظهر بينهم فحزنت لذلك. أيضا عصمت لم أرها، وتركوني للآخرين يضعونني حيث يريدون.

ونحن نسير سألني الرجل كيف أصلي وعدد ركعات الفروض، وتعجب عندما أجبت، ولا أظنه كان يعلم الإجابة لأنه ألحق السؤال بآخر عن عدد أيام رمضان، وعدد شهور السنة وعمري ومهنتي. كل مرة كنت أجيب كان عجبه يزداد وأنا أيضا من الأسئلة التي أتلقاها، وصرنا أصدقاء، حتى كانت ليلة من ليالي الصيف الحارة، وكنا نسير في ممر الحديقة عندما ترامي إلينا من بعيد صوت أم كلثوم يشدو ويهزنا طربا، وأعجبتني الكلمات. قلت كلاما عن الحب، ووجدت صديقي يسمعني باهتمام زائد، وتحول إلى تلميذ وأنا الأستاذ أشرح له الوجدان والعواطف والاحساسات عندما ترق وتشف وتتسامي الأحاسيس وتصبح ملائكية، ويتسع الوجدان لحب البشر والطير والشجر، متعاليا عن الأحقاد والأطماع، وعندما يدق القلب وتبرق العيون، ويتوهج أمل جميل في عيني طفل صغير، أو أم تنتظر، أو رجل يتفوق لينتصر أو يحصل علي اعتراف حبيبته أنها تحبه. حكيت له عن حبيبتي السمراء ووجهها المدور وعينيها العسليتين، وحنانها الدافق وكلماتها الرقيقة لما رأيتها أول مرة، وكيف لاحظت رغم سمنتها رشاقتها وخفة روحها الملائكية، وتعجب عندما سمع اسمها، وربما كان يتوقع اسما أرق، قلت ولكن الاسم لا يهم ويعجبني علي أية حال، فاسم أم السيد لا عيب فيه، ولسانها يقطر حلاوة وسعادة، يهدهدني صوته يحملني فوق السحاب. سألني: هل تزوجتها؟ فلما أجبت بالنفي، سألني: هل تعرف عصمت، فأجبت إنها زوجتي وتوقفت. سألته متعجبا: كيف عرف اسم زوجتي؟ وكيف أنها لم تسأل عن غيبتي؟ واكتشفت أني لم أرها من زمن طويل، أين هي ولماذا لم تحضر لتراني، لابد أن الرجل يعرف شيئا لا يريد أن أعرفه، وكثرت أسئلتي وانفعلت، واستيقظت في الصباح لأجد كل جسدي يؤلمني حتى حنجرتي.

لا أحد يصدقني في وحدتي هذه. وكلما اقترب أحدهم أحكي له أو أحاول فإما أنه لا يسمعني ويتكلم هو، أو ينصرف دون اهتمام، إلا ذلك الرجل القصير، فإنه يسمع جيدا كل ما أقوله، وغالبا ما تنتهي حكاياتي ونحن نسير في الحديقة نهاية

غير مفهومة، فأجدهم تحلقوا حولي يشدون ذراعي للخلف وأقاومهم، وأحس بوخزة مؤلمة، ويلبسونني طاقية غريبة بعد أن يلقوني علي السرير الصاج لأحس بهزة عنيفة تشملني، وأنام علي الفور، وأصحو لأجد كل عضلاتي وعظامي تؤلمني، وأتحمل في صبر باحثا عن الرجل القصير لأكمل حكايتي له، وكل مرة لا نصل إلى نهاية، فإن الانفعال يشملني حتى أصحو أتحسس بدني، وأجد الألم في كل قطعة منه حتى حنجرتي أيضا.

قاض سألني باسما: هل تحب عصمت؟ إجابتي كانت نعم ولكن.. ولكن هذه شملت متاعبي مع اللسان، وعندما سألني أين اللسان، كانت الإجابة التي أضحكت الجميع ومعهم القاضي عندما قلت: لقد أكلته القطة، ونظر الرجل إلي في شك وريبة أني كاذب ولم يسمعني بعد ذلك.

جاءني صديقي القصير يتمشي إلى جواري ولا أدري لماذا خفت منه، فإن وجوده معي دائما ينتهي بالألم في الصباح، ورغم هذا أرتاح إليه عندما أحدثه، فهو الوحيد الذي يهتم، قال: أفكارك تعجبني وتجعلني أسرح فيما تقول كثيرا، ويبدو أننا متقاربان في التفكير، وملأني ذلك زهوا وجاملته ببضع كلمات، نعم كلمات.... هل تدري يا أستاذ أنه اذا توحدت الفكرة مع الإرادة، فإن الكلمة تخلق فوق اللسان، يتحرك بها للآخرين، وعندئذ يفقد صاحبها السيطرة علي الكلمة.

قال صديقي: نعم، اللسان هو »الفرامل«، قلت: لسان أم السيد يقطر حلاوة، أوحشتني أريد أن أراها. سأل: »ولسان الست عصمت..؟« نــظرت إلي قطة كانت تنبش تحت الشجرة ثم نظرت إليه ووجدته ينتظر إجابتي فتركته ومشيت.

***

مــن أوراق محـــارب

الرسالة الأولي

زوجتي الحبيبة.....

.... "علي فكرة الواحد فينا اكتشف أنه ربما يحب زملاءه وجنوده أكثر من زوجته وأولاده، ده شعورنا كلنا، ويا حبيبتي يا مصر مش غنوة، ده إحساس نمارسه كل دقيقة فعلا، وعندما نري العدو ينهزم ننادي الله أكبر وننسي أننا آدميون، نظن أكثر، ملائكة مثلا"

أنا مطمئن عليك، أما أمي فقد تعودت علي ذلك، فنحن هكذا دائما، مسافرون، محاربون، راجعون. وتدرك أن أولادها الثلاثة عفاريت يعرفون كيف يتصرفون.

أنا مع زملائي وجنودي نفرح ونحلم، وننتصر ونخاف معا. فكل إنسان يخاف ولو للحظة أن يموت أو يجرح.

طائرة انقضت لتخطف الأرواح، وفي لحظة خوفي الأخيرة فجأة انطلق صاروخ، أطلقه جندي مجهول من موقع قريب. الصاروخ لاحق الطائرة مشتاقا، دار ولف خلفها يناورها حتى التصق بها، احتضنها من الخلف، كل ذلك في لحظة واحدة، ومن شدة حب الصاروخ للطائرة انفجرا معا إلي الأبد. واختفي الخوف. وشملتنا الثقة، فقد كنا جميعا ننتظر توفيق الله لنري النهاية.

كلنا مشغولون، منا من يراقب من بعيد أو يصوب المدفع أو يوجه طائرة، ندافع عن بعضنا، لندافع جميعا عن مكاسبنا، لا نود أن ينقص منها أو تضيع بل نحاول زيادتها، حتى ترقص القاهرة ومعها مصر كلها للبيان القادم أيا كان رقمه، فإننا نعرف أنكم ألصقتم أجهزة الراديو فوق آذانكم، وأصابعكم تجري متلهفة علي مؤشرات الأجهزة لتسمعوا خبرا عن جبهة القتال، أنا لست بطلا، كلهم أكثر مني بطولة، وكلنا نشترك فيها، ويوما سوف أحكي ماذا كان من أمري، فلست سوي ترس صغير في ماكينة كبيرة، أعمل لتعمل، وأنا مهم وغيري أيضا.

كسروا فرحتي

لقد أحاطوا بنا وكسرت فرحة الانتصار، فطوقناهم من بعيد، سجين وسجان ثم سجنهم ثالث. هكذا نحن الآن داخل الحصار. نقص الماء والطعام والوقود. اذا نحن وهم محاصرون. بعضهم تبادل مع اليهود الوقود بالماء والطعام بالسجائر في المواقع القريبة. أصبحوا جميعا في محنة واحدة قربتهم، ولكن الكل يده فوق الزناد. أعجوبة لم أكن أصدق أن أعيشها.
أعيش أوقاتا طويلة شفتاي مغلقتان، وشعور دائم بالضياع لأن كل شيء قد توقف، بعضهم عاد إلى القاهرة في أتوبيسات خاصة يحمل كل منها عشرة جرحي، فقد كل منهم جزءًا وأصبح لا يصلح للقتال والآخرون سيبقون هنا إلى الأبد تحت الرمال، ونحن هنا فوقها ننتظر أن نسافر في الأتوبيس الكبير، أو ننزل إلى أسفل مع أبطال سبقونا. فقط ننتظر، ولو حتى طلقة قريبة تريحنا من الانتظار، ولكن يبدو أنه لابد من ذلك.

أنتِ جربتِ الانتظار في موعد أو على محطة الأتوبيس أو عيد ميلاد أو.. أو.. ولكن أن تنتظري الحياة فإن ذلك شيء آخر تماما، شيء رهيب مخيف ساعتها يتولد الأمل وأيضا الملل والألم، وكلها فيها حرف الميم، إذن هناك مشكلة أو مصيبة أو موت أيضا، وأتعجب وأنام لأصحو في يوم جديد.

الحنين

والحب شيء صعب متعب يهد الأعصاب والقلوب، وكل منا يطوى، وأنا أحدهم، ويزيد الشوق كلما مر يوم، شوقي إليك وإلى لمسة يدك وعطر شعرك ونظرة عينيك، وشوق إلى الأولاد أن أحضنكم جميعا في فكري بيدين خاويتين. أتمثلكم أمامي، لتنطلق زفرة ألم حارة لأفيق من وهم لا أدري متي أحققه، ويغيظنى أن لي كل شيء، البيت والأسرة والأولاد. كيف أصبح شكلهم، وماذا تقولين لهم، وكيف تنتظرون. وحشتيني جدا.

أخبار الحرب تأخذني لأنها حولي باستمرار، مسئول عن الجنود والضباط أوفر لهم بعض الأمان والاحتياجات والمعلومات، ولا يمنعني هذا أن أفكر فيك والأولاد وبيتنا في لحظات أكون فيها وحدي، وأحن لابتسامتك وتقطيبة وجهك، أفكر متي سأعود، وتمر لحظات حتى تمر فوقنا طائرة العدو، أو تنفجر قذيفة مدفع، فنعود لأعمالنا بعيدا عن أفكارنا، لنقاتل ونحارب ونحصل علي تذكار من العدو، قطعة سلاح أو ملابس أو سجائر أو علبة عصير، وأفكر أن أحصل علي أذن جندي يهودي، أقطعها وأهديها لك في علبة من القطيفة الحمراء، ولكن

أظن أنها سوف تكون بشعة.. آه.. على فكرة الغد عيد ميلادي وكل سنة وأنا طيب وأحسن أني سأكون بعيدا وأوفر عليكم الهدايا، اطمئنوا احتفظوا بها حتى أعود.

خدعت الزمن والمـــــلل

شهور مرت وجهزنا كل شيء لأى احتمال، وكسونا الخنادق ونظفنا الأسلحة، وشوّنا الذخيرة وأخفينا المواقع، وبنينا الأفران نخبز فيها العجين خبزا، فقد استطاعوا في المباحثات أن يمدونا بالدقيق والماء واستطعنا صيد بعض السمك، ونتحايل علي الحياة والوقت والأمل ألا نيأس.

نطيل أفراحنا وابتساماتنا، ونبتر خوفا لا يدوم إلا لحظة، لا أدعها تتملكنى، فإنه لو حدث فلابد أن أجن أو أمرض أو أموت، أجابهها ألا تركبني، وأضع طاقتي في عينىَ أو أذنىَ أو لساني، أفعل ما يجب أن يكون، أتداخل فيهم، في أرواحهم، نتماسك نتقوى، وهي لحظة، إن مرت حصلنا علي نصر، وإذا لم تمر فسوف نموت وهاأنا أكتب ومازلت حيا، لا خوف لا ألم، فقط الانتظار.

وحكايات قديمة عن حصار الفالوجا وأبطالها، ونحن سوف نصير مثلهم، ربما لو كانت هناك حياة. جنودي ملوا الحديث والعمل وأصبحوا مكتئبين، وأبحث في عقلي عما أشغلهم به، يكادون أن يصبحوا مرضي أو خيالات بعد قوة. أين هم من عبروا وهزوا العالم كله. أين الفرح، تضاءل واختفي، ونكاد نموت كل طلعة شمس. بدأ بعضهم يسرق الماء والطعام. الفراغ ... ، اذا لابد أن يمتلئ.

قفزت الفكرة. الليل طويل ممل مخيف، والنهار صعب، والطيران فوق الرؤوس، اذا نقلب الصورة، لننام في النهار، والليل نفعل فيه ما نشاء، أخذت الرجال ولورى ورحلة قصيرة حتى نقطة العدو القوية علي شاطئ القناة، بقايا خط بارليف ووجدت كنزي هناك.

كان الكنز بقايا الموقع، الخشب والصاج والمواسير وأسلاك. لا أحتاج لأكثر من هذا. فرح جنودي بالكنز وعادوا بجزء منه، وقرروا وحدهم أن يحفروا لى ملجأ تحت الأرض ويغطوه بما لدينا، وعملوا حفرة كبيرة جهزوها من الداخل بمصاطب وطاقات لوضع فانوس الإضاءة والأشياء وطاقات أخري للتهوية والنور، ودكوا أرضها بقوة، وصنعوا من شكاير الرمل سلما منحنيا وغطوا كل شيء بالرمال وموهوه حتى لا يرصده الطيران وأهدوا كل ذلك لي.

فرح الجنود بما أهدوه لي، فأهديته لهم ليسكنوا، فهم كثيرون وهذا الملجأ الجديد يتسع لهم، وقبلوا شرط أن يصنعوا آخر لى، وهكذا استمر العمل في ملجأ جديد، أهديته لضباطي فلم يكلوا، فقد وجدوا ضالتهم اشتغلوا في الحفر كل الليالي، وناموا كل الأيام، يقسمون واجباتهم في الحراسة نهارا وليلا وبذلوا كل طاقتهم. وجعلتهم يحسون أنها فكرتهم فحبذوها فقصرت عليهم الأيام.

أنـــــا وأنـــــت

سألني أحدهم عن حال الأولاد ثم استرسل في الكلام ومضى، وأحضرت ورقة وقلما. ووجدت أن ابنتي عمرها أربعة شهور وأربعة وعشرون يوما، وقد مضت علينا معا ألف وثمانية وخمسون يوما منذ الخطوبة حتى اليوم، آه.. كانت فترة الخطوبة ثمانين يوما فقط، ثم انتظرنا ثلاثمائة وخمسة أيام حتى تزوجنا.. و.. و.. عقبال ألف... مليون .. والعمر يطول وأسعدك أنت والأولاد. هل تذكرين أول لمسة، هيه ..؟ أول قبلة..؟ أنا أذكر أول سهرة لنا وحدنا، وأول ليلة وأول صباح وآخر لحظة وعلامات أخرى في أيامي لا أستطيع نسيانها ولا أريد.

صمود

القمر الثالث ظهر ورأيته الليلة، مضي أكثر من شهرين، وهذا قمر الشهر الثالث يطل علينا يكاد يحصي الباقين وغيظهم وخيبة أملهم وساعاتهم التي لا تمر، ولا أدري كم قمرا سوف أعد، وعلي كل حال فلا يزال الطريق في أوله ولم نعد سوي ثلاثة. ويمضي العمر قمرا وراء الآخر، فيزيد عمرنا، ويزيد الحنين وتقل الفرصة، آه.. وتزيد اللوعة وهكذا، هل تحسبون عندكم الشهور بالأقمار؟

كل الآلام الآن لنا، لست وحدي ولكن الجميع، وتمضي الساعات والأيام ونتكلم كثيرا، وأصبحنا نحكي كل شئ، ومازالت هناك بقية لدي كل منا نقولها في الليالي القادمة، وصرنا لا يستحي أحد من الآخر. فكل منا قد عرى أفكاره وعواطفه لزميله. لا، فقد توحدنا، صهرتنا التجربة الطويلة الصعبة، ومحاولات للضحك والابتسام، ثم أحلام للمستقبل والأيام القريبة، لنتشبث بأي أمل، ونصدق كل الكلمات ونتبادلها من فرط الفراغ والملل والأمل فقد فعلنا كل شيء، قاتلنا وانتصرنا، وتوقفنا وأعددنا مواقعنا، وحصنَّاها ألا يخترقونا، وحافظنا علي كل ما عندنا، وأرواح جنودنا كانت أمانة صناها، وسلاحنا نعتني به، ونخلص لله والوطن والشعب ولأنفسنا، فعلنا كل شيء حتى لم يتبق ما نفعله. لقد بدأنا وأعدنا الاختراعات القديمة للإنسان الأول في عيشته، وأمسكنا السمك بأيدينا والطيور، وصنعنا الفخاخ والحراب وبنينا الأفران والجحور، وتمسكنا بكل ما لدينا من أمل وروح، ماذا تريدون أن نفعل أيضا؟

فجأة يحنون علينا ويهل اللوري، ويقذفون ما فيه إلينا »جراكن مياه حلوة من ماء النيل، وعلب بسكويت فرنسي، وسجائر يونانية، وجبن من هولاندا، وفواكه محفوظة. والصرخات تملأ جنبات الوادى فرحة برسالة حب، أنهم تذكرونا هنا أحياء علي الضفة الشرقية للقناة، وننتهي من حفلنا بعد أن نلعق علب العصير والمربي، ونقلب علب البسكويت لنجمع فتاتها الأخير حتى لا يأكله النمل ونظل جوعى، ونشد أنفاس السيجارة حتى يحترق ورق "الفلتر" نتقاسمها معا. ونعود لما كنا فيه، نلعب باختراعات الإنسان الأول لنمضي الوقت، وننحت في الصابون أشكال الشطرنج، ونرسم اللوحات لها، ونصنع من ورق علب السجائر أوراق اللعب أو نرسم السيجة علي الأرض، نعاون أنفسنا ألا نمل حتى لا نسأل عن اليوم ماذا يكون، وجعلنا لنا إماما يبصرنا بأمور ديننا ويفتينا في التيمم، ويعلمنا ويقرأ لنا سور القرآن، وليهدينا ويهون علينا من ديننا ما نحن فيه.

كل هذه الشهور تمر ولا أراك.. هذا كثير، وتحملته بالفعل. في حساب الزمن شهور لا شئ بالقطع، وعندما تكون النهاية معلومة، سوف أتحمل بآلام أقل. اذا عندما لا تكون هناك نهاية واضحة فالألم أكثر. هل تحسين الألم مثلي..إني أفكر وأستعيد الذكريات لكل حياتي. ثم أحلم، ثم أعود وأفكر، واختلف الأمر الآن، لا أعرف كيف أفكر وكيف أحلم، وما أنا فيه هل هو حلم أم أنا مستيقظ وأفكر. الهزيمة والهمة والفداء، والقوة والبأس والأيمان، والدين والوازع والضمير، والصبر والاحتمال والجلد، والشدة وعزائم الأبطال، والرجال والترابط .. هل رأيت معاني وأحداثا مارسناها جميعا كلها، حتى أتينا عليها وعلى نهايتها.

رجال ومتماسكون وأقوياء، وحتى آخر رجل وآخر طلقة، وآخر نقطة دم، وآخر نبضة قلب، وآخر نفس يتردد في الصدور.. كلنا قلنا هكذا وانتهى الأمر، واتفقنا علي أنه ليس هناك إلا هذا، ولن يدخل العدو هنا إلا علي أجسادنا. ثم باقى الأيام نستعد وينتهي الاستعداد، ثم ماذا، مرة أخري ننتظر أملاً جديداً وندور. تحمل يا رجل.. اصبر نقول لأنفسنا والآخرين.. أكاد أسمعها منى وأنا أكتب، أنت تقولينها الآن لى بصوتك أنت.

<u>الرسالة العشرون.. الحلم</u>

ومن كثرة الفكر أصبحت كالتليفزيون أغير قنوات فكرى، نائما ويقظان. أري الصورة التي أحب لمن أحب، ثم أعيد الصور مرات ومرات لأجلس أتكلم، أو أكتب أو أحكى وأعيش الحياة التي أحب أن تكون في بيتي. أتنقل بين الحجرات، وأفتح الأبواب والدواليب والأدراج والثلاجة والبلكونة وأغطى الأولاد

وأغلق محبس الغاز والمياه والباب والنافذة قبل أن أنام، وأتشاجر لأن قميصاً ينقصه زر والآخر غير مكوى والبنت تصرخ لأن لعبتها وقعت علي الأرض.. أعيش كما أريد.

يعذبني الارتباط بكم، فذلك يضخم مأساتي عندي ويجعلني أحس الطعم المر في الحياة. بدونك بدونكم. وأحس الطعم اللذيذ في القرب ونشوة اللقاء والصدر الحنون، وأهلا صادرة من صدق قلبك وفرحة عينيك، وحضن أمى واخوتى ولمعة الدموع في العيون، أنتم تنتظرون أليس صحيحا، يا ساتر. ألا تستطيعون الانتظار أكثر؟ أنا قادم إليكم، أنا نفسي صابر حتى الآن، اتخذوني قدوة لكم، انتهت الصورة وغيرتها الى الواقع لأري الرمال والجنود والسلاح. صامدون صابرون عائدون نحن أصلب من الحديد والنار والريح وكل شئ.. هل تأكدتم من ذلك؟

الكيلو مائة وواحد.. يا ساتر

تصورى.. الأيام مرت بسرعة رهيبة، كانت حلوة "زي السكر"جعلتني أنسى أشياء كثيرة. لكن هناك أشياء لا تنسى، أذكرها الآن واحدا بعد الآخر، والمستقبل أتمنى أن يكون أحلى وأجمل "خليكى معاى علشان لما أكتب لك أستريح" كأنى كلمتك رغم أنى أعرف أنه لن تصل كلمة واحدة إليك فليس هناك خطابات الآن. أكتبها ربما أرسلها عندما تحدث المعجزة. الشعور يتضخم داخلي أحس به يتورم أكاد أنفجر.. الغيظ.. الغضب.. البطء.. الملل.. الأيام لا تريد أن تمر، ولا ساعة تنقل عقاربها.. لماذا مرت الأيام الأخرى سريعة، أيها محسوبة علىَ، هل التي جرت وانتهت، أم التي لا تريد أن تمر، تتلكع أمام أعيننا جميعا، وحبالهم كلهم طويلة عند الكيلو مائة وواحد إياه الذي نسمع عنه عشرات المرات في إذاعات العالم، يا ساتر.!!

أهـــــل الهـــــوى

حبيبتي أحس انتظارك، وحاولي أن تشغلي الوقت بأي طريقة وذلك أيسر لك منى، والأمل سيأتى، واللقاء الجميل ينتظرنا علي شوق أكبر، وحب أكبر وقلوب ستخفق لتزيل آلام الأيام العصيبة، قضيتها وحدي علي الأرض وأخيرا علي سرير ضيق حصلت عليه من موقع للعدو، والبرد يلسع في الظلام ويلسعنى الملل في قلبى.. آه.. صحيح أهل الهوى مكتوب عليهم قلة الراحة وأيضا العزاب والذين لم يحبوا، والذين لا يحبون زوجاتهم.. كلهم عندهم الأمل أن يعودوا.. يتمتعوا بالمدينة وحياة الحرية، في أى مكان آخر تحت أى ظروف غير التي نعيشها، وكل له آماله وأحلامه، وأحلامي وآمالي أنا تدور حولك وأولادنا وبيتنا الصغير، وكلها جميلة ولذيذة حتى الخصام الذى قد أنويه معك،

وأرسم أياما أكثر جمالا وإشراقا ولو طال بي العمر والتقينا سوف ترينها أمامك وتعيشين فيها. أمنياتي كبيرة وكثيرة يظللها الحب والوفاء والتوفيق والتفاهم، وأيضا قلبى الذي لا ينساك لحظة. يعذبني الفراق ويسليني الأمل، لك قبلاتي التى لا تنتهي بكتابة السطور ودائما أحبك للأبد.

الرسالة أربع وثلاثون... المحنة

أيامنا تمر بطيئة لتزيد آلام الخلق حولى. أحس أنى كالمسافر الى أقصى الأرض، وستكون رحلة العودة بعيدة وطويلة جدا، لا نعلم كيف ستكون. تنتهى أفكارنا بضحكة متهكمة ساخرة مكتومة، تحمل معاني الأسى واللوعة والحرمان، أو هانت إن شاء الله، أو أخري فيها طعم الاندهاش للسؤال، وآخر ينظر الى ما لا نهاية وتعابير التجهم أو عدم الإحساس تبين بوضوح علي وجهه، وآخر يقودنا إلى التهريج والمرح المفتعل، أو إلى مناقشة سياسية أولها عام ثمانية وأربعين، وتنتهي بتصريحات المسئولين في الإذاعات. نجتهد في التحليل حتى نجهد ونلقي بأجسادنا نحاول النوم، وننثر كلمات الصبر التي نعرفها حولنا ومن كثرتها فقدت قيمتها وبقي الأيمان الفردى، حتى بات الجميع ساهمين صامتين وتمر ساعات لا نتبادل كلمة.

لأني أعرف أنك لن تقرئى كلماتى هذه في الوقت العصيب، فيحسن أن أقول أنى مرضت ونقص وزنى جدا، عشرين كيلو جراما، يعنى جلد على عظم. وهكذا سوف أبدو لكم كالشبح إن عدت ولا سبيل لزيادة الوزن فلا يوجد طعام، ولا توجد فيتامينات. ولأني أسمر فقد أصبحت أسود اللون وشعري طويلاً حتى غطى الأذنين، وشاربى غير منسق، وأحلق ذقني كلما كانت هناك أمواس، ولا يتوافر ذلك إلا نادرا.. ذلك شئ مؤلم تماما أليس كذلك.

قمرنا الرابع هل علينا.. والأمل موجود وإلا كنا انتحرنا جميعا معا، فقط يكون الألم عندما يختفي الأمل، يا سلام شاعر أنا الآن.. الألم والأمل كلمات متضادة متقاربة.. أليس في ذلك وحى والهام يا سلام والأمنيات والأحلام مجانية لمن يريد.. هل هناك من يطلب.. كثيرون؟

رجل صعيدي العناد... له صبر الفلاح

إن ما حدث لا يمكن حدوثه في العمر مرتين، وأستطيع أن أعد بألا أتورط في أى حرب أخرى بهذا الشكل، ولن أتركك وحدك أبدا، ولن أقبل بأى حصار آخر.. أرجو.. آمل.. آه قتلونا.. مباحثات فوق أرض الكيلو مائة وواحد.. وذلك الجنرال المصرى الرفيع، الفرعونى الأصيل، صعيدى العناد، له صبر

الفلاح البحيرى، صاحب النظرة الثاقبة. أعرفه فقد كان يوما قائدي، هو يفاوض اليهود هناك في كل اجتماع، ورغم أنه يعرف حجم المشكلة لدينا فإنه لم يتنازل ونصفق له رغم أنه أطال أيام الألم.

لا.. ما فات قد مات. والأيام التي مرت أصبحت في حكم النسيان، وما عانيناه، نسيناه، فقط، ننتظر الباقى.. لا.. ما فات لم يمت، ولن يحدث ذلك وسوف يظل حيا مادام التاريخ قد دونوه فى صحف وكتب وشرائط كاسيت وسينما، لا... نحن دوناه في عقولنا ووجدان أبنائنا.. دونا النصر وانتهى، فقط إلا خمسة.. وسوف تنتهى، ينهيها الجنرال المصري المكار في محادثات طويلة صعبة مملة. ولن ينتقص من فرحة عزتنا حصار شهور، ألست معى. قائمة الشهداء طويلة، أعزاء علينا قبلكم، ماتوا من أجلنا، أحببناهم وأحبونا وسبقونا.

<u>الرسالة الأخيرة... قبل العودة</u>

الله أكبر،. نادي المؤذن أذان المغرب.. وكأنما فتحت طاقة جهنم. سمعت الأرض ترتج حولى وطلقات الرصاص تدوى كالمجنونة من كل اتجاه، وخرجت أحمل سلاحى ربما داورية إسرائيلية استطاعت شيئا.

وجدت الجميع يقفون كأنما زرعت الأرض رجالا، وكلهم يرفعون أسلحتهم لأعلي يطلقون النار إلى السماء، الطلقات لها وميض الشهاب، خط أحمر يبين مسارها شد عيني أحاول ربط المسائل. وجدت خيوط نيران البنادق والمسدسات ورشاشات العربات الخفيفة والمدرعة، والرشاشات الأخرى المضادة للطائرات تقابلت ترسم أشكالاً في السماء، كأنهم كلهم اتفقوا على أن ينتهوا من خط الذخيرة المكدس لديهم قبل أن يحل أذان العشاء.

وللعجب لم نكن وحدنا نطلق النار إلى السماء، كان هناك من يطلقون النار أيضا في نفس الاتجاه وبنفس الكثافة والفرحة، لقد أطلق الإسرائيليون نيرانهم أيضا. ونحن وهم فرحون بإتمام الاتفاق وفتح الطريق عند الفجر، وبتنا نحلم بالطريق المفتوح. لم ننم أبدا لا نحن ولا هم. كانت مظاهرة لم تحدث ولن تتكرر ثانية، استمرت برهة من الزمن اقشعرت فيها أبداننا ورؤوسنا فرحين بالحرية، لقد كنا نحاصرهم، وهم يحاصروننا وانتهى الآن كل شيء ووضعنا بصمة التاريخ أننا حررنا سيناء، وأنهينا الموقف، واحتفلنا بالشهداء، وأطلقنا باقى الرصاص تحية لكل من ساهم في نصرنا أو ساعد علي صبرنا.

يا حبيبتي يأمر.. غنوها.. ولكن لن تفعلوها أبدا مثلنا، حاولوا بطريقتكم، لكن نغماتنا كان يقودها مايسترو عظيم يخطط لكل شيء دائما، كنا لا نعلم وسنظل لا نعلم ما فى المستقبل، وكانت أولي نغماتنا الله أكبر، سمعتموها كلكم ونقشت كلمات الحمد في القلوب. يا حبيبتى.. ساعات وأكون هناك معكم .. انتظرونى.

تحية إلى سائق التاكسى

في منتصف ليلة الخامس من فبراير انتهت محنة انتظاري أمام نادي ضباط مصر الجديدة، أريد أن أطير إلى ناسى، أضمهم كلهم إلى حضنى. تاكسى توقف أمامى وفتح السائق الباب وجلست بسرعة، وقبل أن أطلب منه السير، رأيت الرجل يتفرس في وجهي ثم سألنى: هل أنت من قوات بدر؟ الحمد لله على سلامتك يا بطل، مصر كلها كانت معكم، وأدار السيارة وانطلق وكلمات العرفان والشكر والتقدير لا تنقطع في سيل منهمر جعلني أحس أنكم جميعا بالفعل كنتم معنا كل لحظة. أمام منزلى نزل السائق وصافحنى بقوة يعبر عن مشاعره الجياشة، ولما قدمت له النقود تراجع الرجل متعجبا وأطرق ورأيت في عينيه دموعا تلمع، وقال أنه لم يشترك في الحرب، ولا يريد أن أحرمه من هدية يقدمها لبطل من قوات بدر. قبل أن أرد للرجل تحيته انطلق مسرعا وتركنى. استدرت وصعدت سلم بيتي جريا، ثم لم أرفع يدى من فوق الجرس، وأخيرا وجدت نفسى في أحضان زوجتى وابنتى، وانهمرت دموع وانطلقت ضحكات فرحة.

* * *

الهمسة البعيــدة

استلقيت وأغمضت عيني ومال رأسي قليلا إلى اليمين فأحسست دوارا خفيفا، وفتحتهما ووجدت أن كل شيء، في مكانه فأغمضت ليبدأ احساسي بالدوار الخفيف بأني أدور لجهة اليمين، فأملت رأسي إلى اليسار، فتحول الدوران إلى اليسار وفتحت عيني لأري الأشياء ثابتة وأن ما أحس به هو داخلي فقط.
وجدت أنها لعبة، فأغمضت ثانية لأدور قليلا إلى اليمين ثم أتحول إلى الشمال في حركة مترددة كلما أردت، ثم انسقت وتركت نفسي أدور من الداخل في بطء لذيذ حتى كملت نصف دائرة، وفتحت عيني وكان العجب لقد رأيت ما كان خلف ظهري وكأن عيني انتقلت إلى مؤخرة رأسي، فتحسست وجهي، ووجدت أن عيني وأنفي وفمي مازالت جميعا في أماكنها، في الوقت الذي أستطيع أن أري منه ما خلف ظهري، وتحققت من ذلك جيدا عدة مرات، وكل مرة كنت أندهش أكثر واكتشفت أني درت من الداخل إلى الداخل مع احتفاظي بملامحي كما هي دون أن تتغير.
في الردهة قابلت زوجتي، وطلبت مني نقودا فاعتذرت وتركتها ومضيت، ولكني كنت أراها خلف ظهري، وتوقفت تماما عندما رأيتها ترفع يدها مضمومة كأنما تريد أن تلكمني، وارتسمت علي وجهها علامات الضيق وابنتي إلى جوارها تشاهد وتراقب وتتعجب مما فعلته أمها، وخرقت أذني همسة زوجتي قائلة: أف.
عندما دخلت سريري في المساء، كنت أواجه زوجتي ورأيت وجهها مبتسما ودودا، تتهيأ لأن تبدأ الحديث أو تنوي شيئا. ولما كنت مستاءً من فعلتها في الردهة، فقد أوليتها ظهري في الوقت الذي ظلت عيناي علي وجهها أراقب تغيراته التي سرعان ما اتخذت شكلا آخر للإحباط ثم الغيظ والقرف الشديد، وجمعت أصابعها تستعد أن تلكمني، ولكنها آثرت السلامة وأشارت فقط بكلتا يديها تقصد »كبة كده« وانقلبت إلى جانبها الآخر.
توجهت إلى عملي، وركبت الأتوبيس وكانت متعة كبيرة أن تزداد مساحة الرؤية المتاحة أمامي وخلفي، وتسليت بمراقبة الناس حولي، وأمكنني أن أمنع ذلك الرجل الصفيق أن يلتصق بفتاة كانت تقف خلفي منتهزا فرصة الزحام، وأمسكت يد نشال قبل أن ينجح في مهمته في سلب أموال الناس وتركته لينزل من السيارة في هدوء.
اكتشافي الثاني أن قدرتي علي السمع قد أصبحت قوية للغاية لدرجة أني سمعت همسات البعض لمن يجاورونهم، كأن أذني قد استطالتا وأخذتا وضعهما في منتصف المسافة بينهما، فتسليت بما أسمع متعجبا مما حدث لي.
أولادي كانوا يلعبون في حجرتهم بعد أن انتهوا من المذاكرة وتناول طعام العشاء، وعندما دخلت عليهم حجرتهم التزموا الهدوء، وجلست معهم أداعبهم، أحاول أن ألعب، أن يخفوا شيئا ويبحث أحدهم عنه، ثم حل علي الدور ووقفت عند الباب وأخفيت عيني وأدرت لهم ظهري، فرأيتهم يخبئون المفتاح، وعندما

أخرجته ببساطة مرات اقترحت ابنتي أن تضع يدها فوق عيني لتتأكد أني لن أري أين يخبئون المفتاح، وهكذا كنت كل مرة أخرجه لهم بسهولة وصاحوا من العجب، لتحضر زوجتي وتشاهد اللعبة، فقد أصبحت مثيرة لهم، أن أعرف ببساطة أين يخبئون الأشياء وتركتهم ينامون متعجبين.
لاحظت تغير ملامح حرمنا وقرأت أنها تخفي شيئا عني، ساعتها حرت؛ ما الذي تخفيه وطبعا سيكون شيئا ولن يكون موضوعا ما، ودخلنا بعد ذلك إلى حجرتنا لأراها تفتح الدولاب وتراقبني حتى لا أفاجئها وأستدير بوجهي، فقد كان ظهري في اتجاهها، أراها بوضوح خلف رأسي، وعندما رأيت ترددها أن تتأكد وعيناها ويداها حائرة بين فتح الدولاب أو تأجيل ذلك، تشاغلت بأني مهتم جدا أن أشعل السيجارة وأراقب الناس من النافذة تاركا لها الفرصة لتتأكد من خبيئتها في الدولاب أنها مازالت مكانها، وارتسمت أسارير الفرح علي وجهها ثم الارتياح ووقفت إلى جانبي تحدثني كأنما شيء عادي تسألني عما أراقبه في الطريق.
الخبيئة.. ماهى ولماذا خبأتها، وماذا يكون سرها الكبير، وحاولت أن أنفرد بنفسي في الحجرة مرات عديدة، لكنها لم تبارحها، ولم تنم كأنما هي ساهرة تحرسها، حتى مللت وقررت أن أؤجل الاكتشاف لفرصة قادمة علي أكثر تقدير في الغد القريب ويمكن أن أصبر، ولكن كلما داعب النوم عيني قفزت الفكرة والسؤال لأحار في تفسير سرها حتى قرب الفجر، متوقعا أنها مستيقظة تحرس كنزها ولم أحس بالنوم أنه تملكني إلا في الصباح، وهي تهزني قائلة أن موعدي للخروج قد قرب وربما تأخرت عن العمل وظلت تساعدني في ارتداء ملابسي وتقدم لي فنجان الشاي والبسكويت مبتسمة، وكلما أدرت لها ظهري وجدتها تبتسم وعيناها تطرفان إلى مكان سرها الذي لم أكتشفه بعد.
انتفضت واقفا لا أدري كيف أمنع هذه المصيبة، كنت جالسا في حجرة السكرتيرة أنتظر مقابلة رئيسي عندما دخلت إحدى الزميلات وسمح لها بالدخول إليه فورا، عندها سمعت الحديث جيدا بينها وبين الرئيس المحترم وقد انحرف كثيرا بعد عبارات الترحيب الحارة بها.
الجميع حولي صامتون وساهمون لا يسمعون ما يدور خلف الباب المغلق وأنا وحدي تصلني كلماتهم وهمساتهم لتنهار صورهم واحترامهم داخلي، ياله من عربيد، وسمعتها ترشح أحدهم، ليكون مديرا لإدارتي بعد أن أمضيت اثني عشر عاما أرنو لأن أكون المدير، وترشح له ذلك الشاب الصغير قريبها، وتلقي موافقة فورية من أجل عينيها العسلية وضحكتها الشقية.
الرئيس دق الجرس للسكرتيرة يستدعيها ليسألها عن طلبات السيدة وعما انتهت إليه وعرف أني أنتظر منذ وقت طويل، فطلب دخولي ودخلت. قام الرئيس مرحبا يمد يده يصافحني عندما رأيت عينيه تتجه إلى زميلتنا وقد رأيتها خلف ظهري وقد وقفت تشير بأصابعها، تؤكد موعدهم بعد الظهر، وتنبهه ألا يؤخر طلبها بترقية الزميل الأصغر بدلا مني، ورئيسي يبادلها النظرات وإيماءات خفيفة أثناء ترحيبه بي حتى انصرفت السيدة.
دمي كان يغلي في عروقي من موافقته علي أن يتخطاني، بينما يُسيِّر الرئيس

الحديث في اتجاهات أخري بعيدة عندما فاجأته بأن أحقيتي في منصب رئاسة إدارتى يعود لسنوات طويلة مضت، وأذكره بتقارير كفاءتي وأنه سوف تكون هناك مشاكل كبيرة اذا شغل هذا المنصب غيري. ويوافقنى المدير علي حديثي كله، ولكن أشار إلى أن القانون يعطيه حق الاختيار لمن يتولى الإدارة. عندئذ فقدت صبري، وفاجأته باسم الزميل الذي ينوي تعيينه رئيسا لي، وأنه وافق بالفعل، وأنه لا يستطيع التراجع بعد أن وعد الآخرين، ألمح أنه وعد الزميلة أنه سينفذ طلبها، ورأيت وجهه يبيض من المفاجأة، فقد كان حديثه مع الزميلة مغلقا ويده وعيناه تدور علي التليفونات وجهاز الاتصال الداخلي ربما كان احدها مفتوحا يسمع الناس الحديث، واطمأن قليلا وربما أرجع ذلك للصدفة، ووعدني أن يفكر في طلبي وتركته وأنا أنظر إليه وربما أدرك أني قد فهمته، وانصرفت وأنا ساخط علي كل شيء.

في منتصف الليل عندما كنت جالسا في الشرفة سمعت همسا يأتيني من فوق، فقد كان جاري هو الآخر يجلس في شرفته ينادم صديقا له بعد أن سافرت زوجته والأولاد وشدني الحديث.

كان الرجل يتحدث ويصف جمال المرأة التي أسرته وجعلته دائم التفكير فيها، يراقبها ليلا ونهارًا، يراها أحلي النساء، ويري أنها تشجعه قليلا وتصبره كثيرا، مستمتعة بأن تحس أن هناك أحدا يرغبها، في الوقت الذي يتخيل فيه أنها تتمنع وتتدلل لتحفزه أكثر أن يتقدم خطوة، وصديقه يحاوره أن يتركها، ما دامت متزوجة ومستقرة خاصة أنها جارته ولا يجب أن يفكر بهذه الطريقة. تابعت الحديث وخاب أملي جدا في جاري، عندما اكتشفت أن كل حديثه كان عن زوجتي أنا.

كانت زوجتي تصعد السلم خلفي تلهث بعد أن زاد وزنها وتقدم بنا العمر بضع سنوات، عندما صادفني جارنا الذي يسكن فوقنا، وألقي التحية بسرعة ثم تمهل قليلا ليقابل زوجتي ويترقق في تحيته لها، رأيتها من خلف رأسي ترد تحيته في تلقائية وجفاء غير مهتمة به بالمرة لترتسم علي وجهه علامات الخيبة وعدم الرضا أنها صدته، وترتسم علي وجهي علامات الراحة والرضا فابتسمت.

حضر خطيب ابنتي يقضي المساء معنا، ولما انتهينا من تناول طعام العشاء، دخل الشرفة يدخن سيجارته ودخلت خلفه ابنتي، وانهمكت زوجتي مع باقي الأولاد في رفع الأطباق في رحلات قصيرة بين المطبخ والمائدة ودخلت حجرتي لأقرأ كتابا، عندما اخترقت أذني همسات آتية من الشرفة البعيدة وكأن أذني تحركتا بواسطة الرادار لتتجها إلى هناك وتأخذا مكانهما المعتاد عندما تكون الهمسات بعيدة يدفعني فضولي أن أسترق السمع.

كان خطيب ابنتي يتحدث معها في موضوعات عادية، ويبدو أنه اقترب منها فهمهمت، ولكنه لم يهتم بما تقول يحاول تقبيلها وهي تتمنع وتخيفه أنه ربما يأتي أحدهم، وتوترت أعصابي، فكيف أتدخل ومتي، وهالتنى صفاقة هذا الولد الذي لا يحترم الموجودين ويبيح لنفسه ما هو محرم عليه أن يفعله، وشعرت بالخيبة أن البنت تخاف أن يراها أحد وكان الأولي أن تنصرف غاضبة، لا أن

تتيح الفرصة ثم تتحجج. ناديت علي زوجتي بصوت عال أن تحضر، وأخبرتها أنه لا يجب أن تتركهما معا في ظلام الشرفة هكذا، فابتسمت مستنكرة، وجلست واضعة يدها علي خدها وساقا فوق ساق، تنظر إلي تتصنع المكر، لتبدأ حديثها وتذكرني بما كان منذ أكثر من ربع قرن من الزمان وما كنت أفعل لأختلس لمسة أو قبلة، وظللت أسمع كلماتها، كأنها الهمس البعيد بينما أذناي هناك تتابعان ما يدور في الشرفة، أكاد أحس وخز الإبر في جسدي، وقمت واقفا بسرعة وتركتها متعجبة من تصرفي واتجهت إلي حجرة الصالون وتعمدت أن أحدث الأصوات لتنظر ابنتي ومن خلفها خطيبها ليريا من القادم وجلست، ودخلا لأدير الحديث في أية موضوعات وأري نظراتهما المتبادلة وأشفقت قليلا عليهما، وفي اليوم التالي كان لابنتي مني درس، كيف تكون عزيزة مترفعة، مطلوبة في احترام.

كنت واقفا في الشرفة البحرية، عندما فاجأتني زوجتي بأنها تغلق الباب الزجاجي من الداخل، ووقفت في تحفز تراقبني لتري رد فعلها علي بعد أن حبستني خارجا، ولكني نظرت إليها بلا مبالاة والتفت أراقب حركة الطريق، وفجأة هبت نسائم باردة متتالية تلسعني وتزيد في حدتها بالتدريج، وضممت فتحة ملابسي واستدرت أنبه حرمنا أني أريد الدخول، ولكنها ابتسمت وابتعدت قليلا عن الباب الزجاجي الذي يفصل بيننا، تعاكسني، حركتها هذه أثارت أعصابي وزادت إصراري علي الدخول فنقرت الزجاج بيننا، ولكنها أشارت بأصابعها بالرفض وكلما أصرت زاد عنادي، ويبدو أن اللعبة أعجبتها فصارت تتدلل وتتظرف برفضها وحركاتها التي أصبحت شبه راقصة بينما تزداد سرعة الهواء البارد حولي كلما زادت شدة البرودة حتى أني عطست مرة ثم مرات، وارتعش جسدي واستجمعت قوتي لأكسر الزجاج وأمد يدي وأفتح لنفسي مادامت هي رافضة وسوف أجبرها بعد ذلك علي إصلاح الزجاج المكسور، وجمعت لكمتي وقوتي في ضربة وجهتها لمنتصف الزجاج ولم ينكسر، وكررت ذلك حتى آلمتني يدي فركلته برجلي مرات، ولكن الزجاج لم ينكسر بل زاد غضبي وشعوري بالبرد الشديد ينفذ إلي عظامي، وشملتني الرعشة وأخذت تزيد حتى اصطكت أسناني، في الوقت الذي بدأت قواي تخور ولم أعد قادرا علي أن ألكم الزجاج ولا أن أركله، وبدأت أستسلم لما أنا فيه، أحاول أن أرسم علي وجهي ملامح الاستعطاف، ربما ترق هذه الزوجة القاسية وتفتح الباب لأدخل إلي الدفء، ولكنها لم تستجب وأحسست بالضعف المتناهي وبدأت دموعي تنزلق، أبكي سطوتي التي ذهبت في هذا الموقف السخيف وانحبس صوتي في حلقي.

أصوات الرياح وضجيج الشارع بدأت تذهب بعيدا، وبقيت الرعشة السخيفة، وتبدلت الصورة أمام عيني والأصوات في أذني، لأجد نفسي راقدا ملفوفا ببطانية والجميع حولي، وزوجتي أمامي باسمة في فرحة، والأولاد كلهم في الجانب الآخر يراقبون ارتعاشتي، والطبيب يضع يده فوق رأسي، ويربت عليها قائلا: الحمد لله علي السلامة. لقد كانت الحصوة التي وجدناها في المرارة كبيرة للغاية، وقد نجاك الله، ابتسمت وأغمضت عيني وأنا أهمس.. بردان.

* * *

أجرة العمرانية..!

سوسو عندما كانت صغيرة لم تكن لديها القدرة علي تحديد المواقف أو أبعادها، فكان كل شيء يندرج تحت بند شقاوة الصغار يقابلها الضحك والابتسام أو اللامبالاة ممن حولها. ولما كانت فتاة وحيدة علي اخوتها الصبيان، كان ذلك أدعي للدلال واستطاعت أن تحصل علي حقوقها وزيادة، وتعلمت كيف يكون ذلك، فانتزعت حقوق إخوتها عندما تتدلل أو عندما تبكي أو تتباكي، فحقدت نفوسهم وابتعدوا عنها من البداية واتخذوا جميعا موقفا من الأب والأم، وأسقطوا أختهم الصغيرة من حسابهم.

شقاوة الصغار كبرت عندما كبرت سوسو، فتلقفها أولاد الجيران واخوة الصديقات وأصدقاء الاخوة أيضا. سوسو لها تطلعات واهتمامات بدأت بالحلوى والآيس كريم، مقابل قبلة مخطوفة علي السلم أو في المصعد، ولم تعد تستجدي القروش من أمها لشراء الحلوى فهي تحصل عليها بطريقتها دون إزعاج، فما عليها إلا أن تخرج بعض الوقت ثم تعود ولا يحاسبها أحد فهي لم تتأخر كثيرا.

لم تقف شقاوتها عند هذا الحد، وتمادت أكثر في الوقت الذي أهملها كل من في البيت مشغولا بحاله، فمادامت لم تسبب لهم المشاكل فلا داعي لإثارتها، وخدمها الحظ كثيرا فلم تصطدم بما يعوق مسيرتها، فهي تنتقي من الأولاد من يستطيع إشباع حاجتها ما دام يحصل علي قبلة أو لمسة في ثوان أو دقائق وقد تستمتع هي أيضا.

قبل أن يتطور حالها إلى ما هو أعمق من تلك المغامرات الصغيرة التي امتد نطاقها إلى الغرف المغلقة والشرفات المظلمة في بيوت الصديقات، خدمتها الأيام فوجدت نفسها علي أبواب حياة جديدة عندما دخلت الجامعة، وبهرها العدد الكبير من الطلبة، فهي تستطيع أن تنتقي لتحصل علي ما تريد وتطلعاتها قد ارتفعت كثيرا عن سنوات الطفولة وعبرت مرحلة الحلوى إلى مرحلة الهدايا الصغيرة وتذاكر السينما، وتطلعت إلى الملابس والهدايا الذهبية في مقابل ما تتيحه لهم.

القدر دفع إلى سوسو بعريس مناسب رأي أهلها ذلك وقبلوه، وسوسو لم تعترض فسوف يوفر لها ما تريد. هو قال ذلك. واستعدت ووجدت كل شيء عند أطراف أصابعها، فقد شمر أبوها عن ساعديه ووضع كل إمكانياته المتواضعة لشراء جهازها، واجتمعت عصبة النساء في العائلة للمشاركة في تجهيز المفروشات والأدوات، وما عليها إلا أن تشير وتتدلل أو تبكي أو تتباكي ويصل ما تريد حتى قدميها فورا، حتى العريس لم يبخل بما لديه، وصارت من أوائل بنات العائلة، فعندها جهازها وشقة العريس تحوي كل ما حلمت به أن يكون لديها، والعريس له سيارة وتليفون وحساب بالبنك، وكلمة لا.. لا تجد طريقها الي تفكيره، وانتقلت من الحارة الي الحي الراقي. ولما أصبحت كل الأشياء لدي سوسو فكرت فيما يكون بعد ذلك، وكان أن اكتشفت أنه لابد أن تكون الأشياء ملكها. البيت والسيارة وكل شيء. إن زوجها يدعها تستعمل الأشياء بينما لا تملكها، وكبرت الفكرة، وحاولت سنوات طويلة أن تحوز الأشياء وزوجها واع

لإحساسها المتضخم بالضآلة ومحاولة التعاظم بممتلكاته فأفلت منها مرات عديدة وهي تترصد الأشياء والمواقف.
شقاوة الصغار تملكتها فعبست وبكت وتباكت في هدوء وحرقة، واستخدمت كل حيل حواء، وبحثت واستشارت الأريبات والقريبات في محاولة لاستنباط الخبرات، ولهثت خلف الأشياء والأموال، وانحطت بعد جهدها لتبدأ جولة جديدة مع فكرها.
وجدت أنها الوحيدة التي لا تملك وليس لديها ما تطمع فيه، كل شيء ملك لزوجها حتى الأولاد حملوا اسمه، ونقودها الصغيرة تتبخر مع أثمان الملابس والعطور، وتعد الجنيهات الباقية لديها حتى أول الشهر لتعبس وتندب حظها.
عندما ومضت الفكرة لم يكن ذلك شيئا جديدا فإنها مارسته زمنا وحصلت علي الحلوى والملابس وهدايا صغيرة، ثم كررته عندما كبرت مع رؤسائها والزملاء لتحصل علي أهدافها في عملها، واستطاعت، ولكن لم تغامر أكثر مع أحدهم فهي تعرف العواقب وكل مجال له أسلوب ولكل مقام مقال.
البحث عن المقام أصبح شاغلها بعد مرور السنوات، والنادي يضم الكثيرين ممن تهفو إليهم ليحققوا أمنياتها، سوسو لا تطمع في أكثر من سيارة وشقة، شرط أن تكون باسمها في أوراق تزهو بها داخلها، والعنيد زوجها لا يترك لها مجالا والرجال كثيرون.
الصغار دفعوا لها ثمن قبلاتهم، وعندما كبرت دفعوا ثمنا للمساتهم، وعندما كبرت أكثر دفع الزملاء والرؤساء ثمنا لابتسامتها أو لرضاها، أو ثمنا لحلم راود أحدهم حققه من خلال نظرة مختلسة أتاحتها له من فتحة فستانها أو ذيله، وحصلت علي تسهيلات وأيام إجازات وجولات ورحلات، ويبدو أنه آن الأوان بعد الرحلة الطويلة لتحصل علي أشياء أكثر قيمة، اذا لابد أن تقدم ما هو أكثر في المقابل. ذلك الغبي الذي تزوجته، ماذا دفع لها في مقابل ما قدمته؟ مهر وشبكة بضع مئات، الآن يدفعون الألوف. الغبي استغلها سنوات كثيرة. آه لو استغلت خبراتها الآن فإنها سوف تجد الكثيرين ممن يتمنونها وسوف يدفعون مقدما، ولن تخسر شيئا أكثر مما تخسره بالفعل، فالغبي مازال ينتهكها كلها وليس الشفاه أو اللمسة والحضن المسروق، انه ينتهك عقلها وجسدها بمئاته الهزيلة التي دفعها زمان.
الدنيا مصالح، هات وخذ. عندما تحصل علي شئ لابد أن تدفع وقدمت قبلاتها لمن يريد.. شفاه للإيجار.. حضن خاطف للايجار.. الآن.. ماذا سوف تؤجر ولمن وكيف.. وانحسر تفكيرها عن زوجها.
لاحت فرصة ورأت الرجل يكاد يفقد عقله عندما يتحدث إليها، وعيناه تتفحصانها كأنما لم ير أنثي من قبل، أو كأنما كان جاهزا لها، وكما لو كانت تمنت من خادم المصباح فأحضره أمامها، وحارت كيف تبدأ والطريق مفتوح. ولا عقبات هناك سوي ذلك الذي يملك الأشياء حتى حريتها، أيضا يملكها علي طرف لسانه بكلمة من أربعة حروف ليتها تحصل عليها أيضا. تريدها لتحوز الرجل الجديد فلديه الشقة والسيارة ووعدها أن تكون لها.

مادام القانون عندها هات وخذ، فإن زوجها قد أخذ من عمرها السنوات، ومن جسدها ما أراد، فلابد أن يدفع وهي لا تقبل شيكات مؤجلة أبدا. تريد نقدا لتضمن حقها، وهو لن يدفع وليس هناك إلا أن تقتض فرصة وتحمل كل ما في البيت إلى خارجه، ليعود ويثور وتحدث الواقعة أي واقعة وتضمن حقها تماما. وقد كان، فعاد الزوج ليدهش مما جري وتلتهب كرامته بعد لعناتها وعويلها، ليلقي الأربعة أحرف إليها جاهزة كما أرادت.

الرجل، الصفقة الجديدة معدة تماما لاستقبالها، نفس ما رسمته جيدا، توقيعات علي أوراق وتنتقل ملكية الأشياء، أولها سيارة وشقة وحلي ذهبية، وأدوات المنزل الجديد في فواتير الشراء، ودفع الرجل مقدما، اذا له الحق أن يأخذ ويفعل ما يشاء وسوسو تحت أمره في هذه الفترة من الزمان، وانتقلت تمارس حياتها في العمرانية علي أطراف الجيزة، صحيح أن الحي شعبي للغاية، لكن أصبحت أملاكها هناك ولتتنازل قليلا هذه الأيام، وقد تستطيع أن تستبدل في حي أرقي بعد ذلك، وزحفت الأفكار إليها كيف تستغل مواهبها وتؤجر لمسة أو قبلة، أو ربما أكثر لمن يدفع.

نسيت أنه أصبح لديها الآن أعداء. زوجها القديم وأولادها والأقارب والمعارف وزملاء العمل. استطاعت أن تجد لكل منهم ما يشغله عنها، الزوج القديم في قضايا النفقة والمؤخر، والأولاد في المكان الذي سيعيشون فيه، والزملاء أثارت بينهم موضوعات كثيرة، ضربتهم في أنفسهم لصراع حول الكراسي والوظائف، والأقارب ابتعدت عنهم وقربت أحدهم، ربما كان عليه الدور المرة القادمة. أما أولاد زوجها فقد تركت لهم أباهم يؤدبهم المرة بعد الأخرى في أيام متتالية، حتى آثروا أن يختفوا تماما بعيدا وفازت بكل ما أرادت.

لكي تثبت أقدامها في ملكها الجديد، استدعت أمها وأختها وأخاها وابنتها وزوارهم، إلى عرينها، في غيبة الأسد ليعود ويلقي احتلالا كاملا، وآثر السلامة مادام يحصل منها علي ما يريد، ثم ينسحب في هدوء يعيد حسابه المرة بعد الأخرى، بعد أن فقد الأرض التي يقف عليها، أولاده وبيته وسيارته وجزءاً كبيراً من ماله، وما عليه إلا أن يهز رأسه بالموافقة علي ما يخطر لها.. مسكين.. لا.. هو دخل بقدميه في دائرة اللبؤة ولا يجب أن يثيرها، فقد عاصر أحداثها مع زوجها الأول، ولا يريد نفس المصير، وتمزقه هو الآخر بطريقتها، ثم يتسلل عائدا علي أطراف أصابعه في المساء حتى لا تستيقظ أمها وأختها ليحصل عليها في تلك الليلة بصعوبة بالغة، ليحسبها بعد ذلك ويجد نفسه خاسرا صفقته علي طول الخط. لقد أراد أن يتزوج امرأة فتزوجها ومعها آخرون، أمها وأختها وابنتها وابنها وكل ضيوفها، علاوة علي شطحاتها الغريبة، وترك دنياه التي بناها وعاصرها وهي تكبر في أولاده وأصدقائه الذين تركهم جميعا من أجلها. كيف يتراجع بعد أن سلمها كل ما لديه. الآن إما أن يظل أسير هذه الأشياء مع هذه الشرسة التي لابد أن تأخذ أولا، أو ينجو بعمره الباقي ويترك لها ما أرادت وحسبها وتركها.

الآن سوسو تقف علي أرض صلبة هي رأت ذلك، فلديها شقة وسيارة ومال وجاهزة لراكب جديد يدفع شيئا ستتملكه، ونسيت أن الزمن قد مر منه الكثير وتقف هي في المواقف ربما أرادها راكب توصله إلى مرحلة ما، ولكن كثيرين يمرون الآن ولا يعيرونها الانتباه، وربما قد آن الأوان لتدفع سوسو للراكب هذه المرة.. هل سيكون هناك من سيقتنص الفرصة يا تري.

* * *

... ... يادـيــل الفــار

آه.. آ.. آه، وجدت نفسي أصرخ هكذا وأنا أهوي من السرير علي الأرض وسقطت لأصطدم وأحسست الألم في فخذي وكوعي ومؤخرة رأسي، ولابد أن الصدمة كانت شديدة رغم أن السرير لا يرتفع أكثر من نصف متر.
كانت الدنيا ظلاما، ولا أدري كم كانت الساعة، والبرودة تسري من البلاط إلى عظمي مباشرة وآلام السقطة تزداد، وأصبح فوق احتمالي أن أكتم أنيني وصرت أئن من الألم والبرد.
تذكرت سقطتي الأولي من فوق السرير عندما كنت في الخامسة من عمري، واستيقظت علي الصدمة وبكائي، ووجدت أمي تحتضنني وهي ترفعني من فوق الأرض في لهفة وحملني أبي ثانية إلى السرير يطمئنني ويتضاحك وينصحني بعدم الشقاوة في الأحلام حتى لا أسقط مرة أخري. في الصباح. عندما علم اخوتي التفوا حولي وأخذوا يغنون.. »شقع بقع ياديل الفار، واحد يقع والثاني يندار« يعايرونني أني صغير.. كم كانت هذه الأيام سهلة جميلة، يرحمهم الله جميعا.. كان ذلك منذ أكثر من ستين عاما مضت.
ياه.. ستون عاما.. كثيرة هذه السنوات! ماذا فعلت فيها ياشهبور؟، سألت نفسي، وتوالت صور الماضي واحدة بعد الأخري وتوقفت في بعضها، والآخر مر سريعا أمامي. أوقفتني صورتي يوم زفافي أمام المصور يعدل وضع وجهي والطربوش ويوجه كلماته الي دولت أم الأولاد.. رحمها الله، ماتت من سنين وودعت الدنيا، وتركتني علي حين غرة. أعتقد أنها كانت أنانية كثيرا عندما فعلت ذلك. الرجال يتزوجون النساء الصغيرات ويحرصون دائما أن يكن أصغر منهم وفعلت مثلهم وكانت دولت أصغر مني بخمسة عشر عاما.. أملت أن أموت قبلها، ولكن فعلتها ومضت عندما بلغت الأربعين تماما، ومن يومها وأنا وحيد.
ولد وبنت فقط هم أولادي.. تزوجوا وأنجبوا ثم طاروا متفرقين في أنحاء الدنيا شرقا وغربا، تأتيني خطاباتهم، ومكالماتهم تحمل الأمنيات والأشواق، ويعودون كل حين يحمل كل منهم هدية للأب العجوز، ملابس وأدوات لست في حاجة لها، بل إن احتياجي الأكبر إليهم هم أنفسهم، ولكن حياتهم ومستقبلهم وسعادتهم هكذا، فأتركهم يذهبون، وعندما أسمع صوت انغلاق الباب تسيل دموعي وحدي.
بدأت دموعي تسيل دون بكاء، فقد اشتد الألم جدا وبدأت أطرافي تتجمد فوق البلاط البارد، والبرودة تندفع من خلال الباب في اتجاهي تماما، لتزيد تعذيبي وألمي.
دولت رفيقة الصبا والشباب والكهولة، تركتني واستأثرت وحدها بالراحة الأبدية. لقد نفذت ما وعدت به.. كل ما وعدت، فكانت صديقتي وزوجتي وأمي وابنتي، دائما تحنو علي في رفق، وتتركني عندما تحس برغبتي أن أنفرد بنفسي، تحس نبض قلبي، وميول فكري، بشوشة باسمة لم أر فيها ما يسوء أبدا، وليس هناك مثلها ولا حتى كوثر ابنتنا فهي جامدة صلبة، تركتني وسافرت. دولت كانت

ماهرة ولا تحملني هما، وبعد أن رحلت وجدت الدنيا كلها فراغا بعدها، فقد كانت تفعل كل شيء والآن لا أستطيع فعل أي شيء.
بيومي بك مدير الإدارة، ذلك المتعجرف دائما، وقف في طريقي عندما حانت ساعة كتابة التقارير السرية ولم يراع ضميره وفضل ذلك الموظف الذي ينحني كلما وجه إليه الكلام، كان اسمه الدرديري، المهم ترقي الدرديري متخطيا إياي، وشكوت وكتبت ولم يهتموا حتى بعد أن رفعت قضية أطالب بحقي في الدرجة، والأمور تسير وفقط أنا الذي تألمت حتى خرجت إلى المعاش مظلوما، وتقاضيت معاشا أقل سبعة جنيهات كاملة عما أستحق.
أحسست بأنيني يرتفع، والألم يتوحش، وماذا يفيد الأنين فلن يسمع أحد. البيت أربع شقق والسكان ليسوا فيه، أنا وحدي فقط هنا، سافر من سافر، وهاجر الآخرون ويأتون في إجازاتهم، وعندما كنت بصحتي كانوا يزورونني، ويوصونني أن أهتم بأن أبوابهم مازالت سليمة، وعندما أصبحت هكذا أيقنوا أن الزيارة لا لزوم لها.
لما وهن العظم وكلَّ البصر وأصبحت الخطوات محسوبة، كنت قد تدربت علي الأعمال الضرورية حتى لا أحتاج إلى أحدهم، فالمعاش لا يكفي إلا الأدوية والضروريات، ومن سنوات عندما حضرت كوثر يبدو أنها لاحظت مدي مجهودي في إعالتي لنفسي، وحن قلبها مثل أمها، أحببتها عندئذ أكثر. المهم أنها فكرت وقررت ونفذت، لأجدها تزورني في اليوم التالي ومعها أم رءوف وأوصتها بي خيرا، وأعطتني أجرها لسنة قادمة فدعوت لها كثيرا وبكيت وحدي أكثر.
أم رءوف كانت بي رئيفة وأراحتني من كل مجهودي في الأكل والنظام والنظافة. أكثر من ذلك كانت مسلية جدا تحكي بفطرتها عن كل شيء تعرفه أو تراه، واستغنيت عن التليفزيون وقتا كثيرا، كانت طيبة للغاية وكانت تسألني الرأي عندما يشاكسها زوجها، فتأتي اليوم التالي وتدعو لي بطول العمر والصحة والستر، فقد أفادتها نصيحتي ورضي زوجها عنها. أم رءوف كانت واعية تعرف الأسعار، وتعرف كيف تشتري، ووفرت لي من ثمن اللحم والفاكهة والخضروات، وأيضا تعلم كيف تحصل علي سباك أو كهربائي لإصلاح الأعطال بالمنزل، وأسمعها تساومهم وتجادلهم، تكاد تصرخ، ثم تعطي الرجل ما أرادت وينصرف راضيا بما حصل عليه منها، لذا فقد زدت مرتبها مرة بعد الأخرى لأحصل علي دعواتها بالصحة والستر صادرة من قلب نقي.
يوما اقترحت أم رءوف أن أستغني عن غرفة المكتب وأبيعها، فقد أرهقت من نظافة المنزل الواسع وقد أصبح المكتب زائدا عن الحاجة بعد أن رحلت دولت، وسافرت كوثر وفاروق، ولن يحتاجها أحد بعد ذلك، وكان رأيها مناسبا ووافقت، وبعد أيام حضر رجال عرضوا أسعارا لم تعجبها، حتى أتي يوم عرض أحدهم ألف جنيه كاملة، وبهرني الرقم لأن الآخرين عرضوا بضع مئات، وقدر الرجل الأثاث تماما ودفع يومها. أعطيت أم رءوف مائة جنيه بكت عندما ضغطت عليها لتأخذها، ومدت يدها محرجة أنها تتلقى عمولة البيع ودعت لي بالصحة والستر.
كان ثمن غرفة المكتب كاملة بالمكتبة والكراسي والمنضدة الكبيرة والسجادة

عشرين جنيها بالتمام والكمال.. يا سلام. خمسون ضعفا بعد أن استخدمتها أكثر من نصف قرن من الزمان.. التهبت الأسعار حتى أصبح شريط الأسبرين يصل ثمنه الي نصف جنيه.. يوه.. واللحم والخبز.. لا داعي فإن ذلك سوف يرفع ضغطي أكثر.. ماذا أفعل بالألف التي هبطت فجأة. أم رءوف قالت البنك أو خزينة صغيرة.. أو .. ولكن ليس عندي القدرة علي فعل شيء الآن وتركت النقود في الدرج تنتظر مصيرها.

ذلك اليوم الصعب، عندما دق جرس الباب في الصباح وقمت لأري الطارق ودرت حول الكرسي وكانت أم رءوف قادمة من الشرفة لتفتح هي الأخرى.. هذا ما أتذكره.. وجدت أم رءوف تدور حول نفسها.. لا.. لا.. كانت تدور مع الحجرة والأثاث وخدر ثقيل يركبني كلي وأحسست بنفسي أتهاوى، وصرخة أم رءوف تدوي من بعيد في أذني. عندما أفقت كان كل من حولي يروحون ويتحركون بملابس بيضاء، وأدركت أني في المستشفي ولم أجد أحدا ممن أعرفه بجانبي.. من يا تري سيسأل عني.. بعد أن رحل الأولاد، ومات من مات.

سارت الجلطة في الدم ترتع كيفما شاءت دون أن أدري ودون أن يوقفها أحد، تعبث ما وسعت حتى دخلت رأسي وتغلغلت في مخي تقفز من شريان لأصغر حتى توقفت، ولم تستطع التقدم أو الارتداد. توقفت لتمنع الحركة عن يد وساق ولسان. لقد شلتني هذه الجلطة الكئيبة، ولم يكفها ذلك بل استراحت فوق مركز الذاكرة، تتراقص فوقه فأتذكر أشياءً وأنسي أخري. الأطباء يتحادثون حولي وأنا في سريري بينهم، لا يدرون أني أفهم كل ما يقولون، وأيام ونقلوني بعد أن زال الخطر إلى غرفة أخري، ولما طالت الأيام عادت بي أم رءوف إلى بيتي.

أم رءوف أصبحت محور حياتي واهتمامي، فهي تفعل كل شيء مخلصة تحلل عيشها وترضي نفسها وربها. بعد أن استقرت حالتي اتفقنا معا دون نقاش، إشاراتها وكلماتها وإشاراتي وحدي، وتفهم بسرعة ما أريد. لذا فقد أحضرت ورقا وقلما وجلست تكتب لأحبائي بعد أن زال الخطر تخبرهم بشللي واحتياجي لأن أراهم، وكتبت أنها فضلت ألا تزعجهم وتجعلهم يأتون تاركين أعمالهم وطمأنتهم خيرا.

فاروق ابني بعد أن حضر، اشتري لي كرسيا له عجلات، وكوثر اشترت أشياء وأدوات أخري، تساعد من هم في مثل حالي، وخفف ذلك من حمل أم رءوف كثيرا وانصرف أولادي بعد أن اطمأنوا علي، وتركوني هذه المرة بلا حول ولا قوة.

الآن بلا حول ولا قوة، لا أستطيع أن أتحرك من سقطتي، أو أن أعدل وضعي، أحتاج لمن يساعدني. مددت يدي وبصعوبة بالغة وصلت إلى الأمل.. أن أستطيع جذب الغطاء من فوق السرير وطرفه مدلي في اتجاهي يتحداني أن أصل إليه.. ووصلت إليه وجذبته وغطيت جزءاً مني فلما فعلت ذلك تجرأت أكثر ومددت يدي في اتجاه التليفون ولم تصل اليه.. حاولت مرات حتي أمسكت بالسلك وجذبته فسقط علي الأرض الي جواري، وبهمة أدرت القرص أطلب كوثر فمنزلها أقرب من منزل فاروق.. وسمعت الجرس علي الطرف الآخر يدق مرات حتي ردت.

اشتكيت سقطتي والبرد، ومغامرتي مع الغطاء وسلك التليفون حتى كلمتها، وهي تنصت لكل كلامي. سمعت صوتا دافئا، وضحكة ساخرة متهكمة من طريقتي في معاكستها.. لم تكن كوثر ابنتي.. كانت سيدة أخري، ويبدو أنها كانت وحيدة تحس الفراغ وجاءتها مكالمتي لتتسلي، وسألتني كثيرا، وضحكت وحكت لي عن أشياء، وهونت علي بعض الوقت ثم صدقت أخيرا أني أستنجد بابنتي فتركتني لأحاول طلب الرقم ثانية.

ما هو رقم تليفون كوثر.. أين ذهب.. أحاول في ثنايا ذاكرتي أن أجده أو أجد رقم فاروق، ويبدو أنه لابد أن أحاول في كل الأرقام التي تخطر ببالي، وأن أتلقي اللعنات من الناس عندما أوقظهم في هذه الساعة، وتركت التليفون يائسا.

إن ما أعانيه الآن لابد أنه عقاب لما فعلته من قبل، وبدأت أتذكر أخطائي وذنوبي في حقوق الآخرين واحدا، بعد الآخر، وعندما انتهيت منهم، وجدت أن كل ذلك لا يعادل أبدا ما أقاسيه، فقد كانت كل أخطائي صغيرة.. آه.. تذكرت، لقد كانت سقطة من نوع آخر. العام الماضي أم رءوف كان لابد أن تسافر مع زوجها أسبوعا الي قريتهم، ولم يكن هناك مفر من ذلك حتى طمأنتني أنها لن تتركني وحدي وسوف تحضر معها في الغد جارة لها وتعلمها كل شيء حتى لا أتضايق، وسوف تتركني في الثامنة مساء كل يوم كما تفعل هي، ثم تحضر صباح اليوم التالي، كان اتفاقنا هكذا، وطمأنتني أنها لن تزيد أجازتها عن أسبوع. جارتها جاءت.. رأيتها ولم أرتح لعينيها، وجدتها جميلة صغيرة تتضاحك باستمرار، ومضطرا قبلت فليس هناك اختيار آخر.

حكت لي زينات.. قالت أن زوجها تركها من سنوات ولا تدري أين هو، وتشكو حياة الوحدة ومشاكل ولديها وتكاليفهما التي تزيد كل يوم. وتدور زينات تؤدي أعمالها وتغني وتفتح الراديو والتليفزيون ثم عندما تزهد كل ذلك، فإنها تجلس علي مقعدها الي جوار السرير لتحكي.

الأدوية التي أتناولها أحدها مهدئ أتناوله قبل النوم.. أعطتني زينات الدواء وظلت تحكي وحدتها وأسمع لحكاياتها أنتظر أن تنتهي لتنصرف الي بيتها كما تفعل كل يوم. الليلة ظلت تحكي حتى ثقلت جفوني ووجدتها تشد الغطاء علي صدري وتساويه فوق السرير ثم امتدت يدها لتدلك ساقي، ثم امتدت أكثر.. واغتصبتني زينات. أحاول أن أقاومها وأستسلم ثم أقاوم ثم استسلمت نهائيا بعد أن خارت قواي قليلا وزادت رغبتي رغم شيبتي.

صاحت أم رءوف عندما عادت ورأتني. وصرخت في زينات أنها لم تكن تعتني بطعامي، وأنها لم تنفذ ما وعدت أن أكون في عينيها. هي قالت ذلك.. وفعلت بطريقتها، والله حليم ستار. وانتهت زينات ولن أرضي أبدا أن تعود فقد اكتشفت أنها استولت علي ثمن غرفة المكتب في غفلة مني.

الله حليم ستار، يعرف أنه لا حول لي ولا قوة، ولم أكن أقدر علي المقاومة أبدا، لذا استسلمت ولا أظن أنه يعاقب عجوزا مشلولا علي زلة له في ضعفه، لقد كفرت عن كل سيئاتي مقدما ومؤخرا، فقد كنت أفعل الخير دائما، وأقول الحق وأؤدي حق الله، وما فعلتها أبدا وأنا صغير، وفعلتها مجبرا وأنا عجوز مشلول

مقهور، وكيف لي أن أكفر عن ذنبي وأنا في مثل ما أنا فيه.
آه.. ضلوعي وفخذي.. أيضا كوعي يؤلمني بشدة والبرد يخترق، أكاد أموت من الألم، لابد أن فخذي قد كسرت. أعرف أن عظامي عجوز، ولن تلتحم كسورها بسهولة فما عادت أجهزتي تستطيع أن تستخلص الكالسيوم، وتوجهه الي الكسر، وحتى إن حدث فالعظام هشة لا تحتمل أن تلتئم، وهذا ذنب زينات. الحمد لله فقد عرفت أن كل الألم الذي يصيب الإنسان يكفر عن سيئاته.. يارب أنت رحمتك وسعت كل شيء وأطمع فيها ليت فخذي تكون قد كسرت، لتغفر لي ما أتيت.
صاحت أم رءوف في لهفة ودقت علي صدرها.. فوجئت بها تقف فوق رأسي تشهق مما تري والدموع تتجمع في عينيها، واستدارت وجرت وعادت بعد لحظات ومعها رجلان، حملوني كلهم ووضعوني علي السرير، ونظرة لوم في عيني أم رءوف. حكيت لها أني مللت الرقاد علي ظهري وأحسست بالاحتياج أن أهرش جلدي، فتقلبت في السرير حتى لا تصيبني قرحة الفراش ووقعت. وتلاحقني أم رءوف بالسؤال تلو الآخر تطمئن علي حالي.
قلت لها.. أريدك أن تبيعي غرفة الصالون وغرفة الطعام، وربما اشترينا بعض الأشياء التي تلزمنا. الحق أنها لم تعارضني فقد كانت الشقة كبيرة وأعمال النظافة ترهقها، وبعد أيام أحضرت الرجل الذي اشتري المكتب ودفع هذه المرة أربعة آلاف من الجنيهات، أنا لا أتفاخر فإن الأثاث الذي بعناه كان فاخرا بالفعل تحفة تصلح للقصور. أم رءوف وضعت أمامي المبلغ كله فرحة بنجاحها في البيع بثمن لم نكن نحلم به.
قلت يا أم رءوف.. اقسمي المبلغ نصفين، ففعلت، وقلت هذا اذهبي به الي المسجد وضعيه في صندوق الزكاة، فأومأت بالفهم والموافقة، فدفعت إليها بالنصف الآخر وقلت إن هذا لأجلك أنت وأولادك. شهقت أم رءوف واتسعت عيناها غير مصدقة، رافضة أن تمد يدها، ثم رضيت أن تأخذ النقود ويدها الأخرى تربت علي كتفي وهي تدعو لي بطول العمر والصحة والستر، وأن يغفر الله لي ذنوبي، وكانت هذه هي الأهم.

* * *

دائـرة ظـل

كانت الشمسية مغروسة في رمال الشاطئ تحجب أشعة الشمس وترسم دائرة علي الأرض، أجلس فيها أستمتع بالهواء البارد يأتيني من البحر. وجدت الطفل يأتي بدلوه الصغير مملوءاً بالرمال يهيلها لتسقط مكونة هرما صغيرا، ويعمل جادا في تكوين مجموعة من التلال.

رأيت الوادي يدور حول سفوح التلال، والقمم تبدو بعيدة وظلال السحب تلوح وتختفي. وكانت صحراء قاحلة موحشة، حتى رأيت النهر يسيل في الوادي ليملأه ويتفرع إلى نهيرات أصغر وجداول تخرج منها إلي اتجاهات رسمتها يد الطبيعة، فنبتت علي حواف الأنهار شجيرات، ما لبثت أن كبرت وامتدت الخضرة لتشمل الوديان وسفوح الجبال، بينما تناثرت بيوت صغيرة هنا وهناك.

علي ضفاف النهر رأيتهما يسيران. فتي وفتاة، يحوطها بذراعه كأنما يحميها من الأيام، ثم جلسا غير بعيد، وكانت هناك فراشة رقيقة تطير حولهما وتدور، فرفعت الفتاة ذراعها تطاردها، ولابد أنها كانت ماكرة فكانت تندفع بعيداً ثم تعود مقتربة لترتفع يد الفتي تداعبها. ظلت الفراشة تدور وهما يتابعانها باهتمام حتى استقرت فوق رأس الفتي، ورفعت جناحيها لأعلي وخفضتهما كحركة طيرانها تستعرض جمال ألوانها في ضوء الشمس، فثبتت الفتاة عينيها ترقب حركتها وجمالها. كان الفتي ينظر في عيني الفتاة عندما أغمضتهما لتحتفظ بالصورة الجميلة فيهما، وفتحت الفتاة عينيها عندما أحست بقبلته الطائرة فوق شفتيها، فأغمضت ليحاول ثانية. ولما هم دفعته بيدها دفعة خفيفة فانقلب علي ظهره يتدحرج فوق شاطئ النهر ولم يسقط فيه ونظر إليها متعجبا .

طارت الفراشة بعيداً، وجف النهر والنهيرات والجداول الصغيرة، واختفت الخضرة والأشجار، وعادت الصحراء موحشة، بينما كان الطفل يبكي عندما داس أحدهم علي جنته الصغيرة، فتركها وانطلق يكمل بكاءه في دائرة ظل صنعتها شمسية مغروسة في رمال الشاطئ تحجب أشعة الشمس. ومددت يدي أمسح الدموع .

* * *

لحظـــة صـــدق

دخلت السيدة مسرعة ملهوفة، عيناها حيري تدور في كل مكان، ولما وجدته، ألقت بنفسها عليه في شوق واضح تحتضنه، فمد يديه وعانقها، وهي بدورها تقبله في أي مكان تلمسه شفتاها، تتمتم في همس بشوقها والحنين، لقد افتقدته طويلاً. ثم تبعده عنها لحظة لتملأ عينيها من ملامحه، وتضمه بسرعة، حتى لا تفقد إحساسها بجسده يلامسها.

شفتاه كانتا تبحثان عن مكان لهما، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما، وصرخة الفرحة أخرها حتى يستطيع أن ينال لمسة، وتستمر الشفاه في بحثها عن مكان لها، علي الوجنة، والذقن، في تحفز واضح وشوق لا يعرفه إلا من عاناه. بدأت يده تعربد في كل ما يقابلها، وتربت علي الوجه والرقبة، ثم دخلت في فتحة الفستان كالمجنونة تكاد تمزق الملابس، فساعدته وفكت الأزرار، ووسعت له لتمتد يده بجرأة وحرية أكثر .

افترقت العيون في تلك اللحظات، هو ينظر الى ما يضع يده عليه من جسدها في قلق وحرمان، وهي بعد أن تمالكت أنفاسها من صعود السلم الطويل، بدأت عيناها تفحصانه بدقة وتنظران إلي شعره ووجهه ويديه وباقي جسمه، ولما اطمأنت كانت يده قد وصلت إلى المدى، فامتدت يدها تساعده، ولكي يحدث ذلك، فإنها يجب أن تبعد رأسه ويده عنها، وهو ملتصق بها لا يستجيب، كان يبدو ملهوفا لا يدري أبدا أنها أيضاً ملهوفة تحتاجه أكثر من أي لحظة أخري.

كنت أرقب ما يحدث أمامي، فذلك المشهد ليتكرر كثيراً، وكل منهما لم يبال بوجودي، بل لم يحسا علي الإطلاق بي، ولأني فضولي بطبيعتي، فقد قررت أن أستمر في مراقبتي، أستمتع بما أراه من عاطفة صافية لا تكون أبدا إلا هكذا، ولم أتعجب ولم أخجل.

في حركة خفيفة مدربة دست يدها في ملابسها، ودفعتها بأصابعها فكان نصف صدرها خارج الملابس في لحظة انتظرها طويلا، وملهوفا، احتضنه بكلتا يديه، واندفع برأسه يصدمه فاتحا فمه ليلتقط صدر أمه، فقد عادت متأخرة هذا اليوم.

* * *

مر علي زواج عبد الرءوف خمس سنوات نال فيها من السعادة ما يكفيه إلي أن بدأ حديث سيدات العائلة وسؤالهن فيما بينهن لماذا لم ينجبا حتى الآن، وأصبح السؤال يتردد بين ليلي وعبد الرءوف يبحثان عن إجابة، وكان الحال قد تغير كثيرا بينهما بعدما مرت سنوات أخري وأصبح السؤال هو تفكيرهما الدائم حتى أخبرهما الطبيب أن كليهما قادر علي الإنجاب ولكن من زوج آخر. كانت ليلة طويلة صعبة وطلبت ليلي أن يطلقها ويتزوج بأخرى، ورفض عبد الرءوف حديثها، وربما كان يتناسى الفكرة ويتجنب الحديث عنها، إلا أنه قد أصبح مقتنعا تماما بأهمية الطفل ولكن كيف إلا إذا تزوج. هذا لن يكون فإنها حبيبته منذ نعومة أظـــافره وكافأه الله ومنحها له ولن يخذلها ولابد أن هناك طريقة أخري غير الصبر.
دارت ليلي علي الأولياء، ثم جربت الوصفات وحسبت الأيام والليالي، وقد تكون قد وضعت حجابا تحت الوسادة بعض المرات، ولكن لم تسفر محاولاتها عن نتيجة فأصبحت تبتعد عن الكلام في هذا الموضوع رغم أنه كان يدور دائما في مخيلتها.
استيقظت ليلى مبكرة نشطة فاليوم عيد زواجها السابع عشر ولديها ما تفعله استعدادا لسهرة كبيرة. لقد اشترت سلسلة مفاتيح من الذهب. يكمل بها أناقته، سوف تذهب إلي الخياطة لتستلم الفستان الجديد، وتمر علي الكوافير وتحاول أن تستريح قليلا قبل أن تذهب إلي موعدها مع عبد الرءوف كعادتها كل عام، وتحركت بسرعة ووجدته قد استيقظ قبلها وواعدته علي اللقاء. إن اليوم كله إجازة لكل منهما وسوف يتقابلان في المساء. مضي عبد الرءوف ليشتري الخاتم الذي أعجبها متوقعا أن يكون مفاجأة. حلي كثيرة أهداها لها في مناسبات مختلفة. إن ما يسعدها شيء آخر. لو رزق بولد لكان عمره الآن ستة عشر عاما يخطو علي طريق الرجولة ولو كانت فتاة فهي علي أبواب الأنوثة تكون.
إن أي شيء يقدمه لن يكون ذا بال فلديها كل شيء، ومضي يبحث عن هدية.
كان الموعد في التاسعة وحضرت ليلي متأخرة عشر دقائق كعادتها وركبت إلي جواره ورآها جميلة، وهذه التسريحة الجديدة تجعلها كملكة وابتسم وتبادلا الأمنيات، ونامت يدها بين يديه. وقررا أن يسهرا بعيداً عن الزحام ليستعيدا ذكريات الأعوام. عندما وصلا إلي المقهى واتخذا مكانهما يتضاحكان، مر إلي جوارهما رجل توقف أمام عبد الرءوف يحملق في وجهه ثم احتضنه بقوة يربت كل منهما علي كتف الآخر في شوق ودعاه للجلوس، يسأله عن أحواله ودنياه.
قال محسن أنه هاجر إلي أمريكا ونجح هناك وحضر ليزور أهله، ومضي يحكي.
نظرت ليلي إلي محسن تستمع إلي كلماته وأحاديثه عن غربته ومشاكلها

وطرائفها وفكرت أنه لو تزوج لكان له الآن نصف دستة أطفال كلهم علي درجة كبيرة من الوسامة والجمال. همست لنفسها ليتها تحصل علي طفل يشبهه ولكن كيف؟ إن هذا هو الجنون بعينه.
عندما كان محسن يحكي عن صفقته التي كسب منها أخيراً كان عبد الرءوف يفكر في شيء عجيب. إن محسن سوف يسافر غدا، ولن يعود قبل سنوات، وربما لن يقابله ثانية. إنه لم يرفع عينيه عن ليلي منذ جلس، يحدثها ويحكي وهي تسمع وتضحك من قلبها ويبدو أنها سعيدة أن تعرفت عليه. لا إنها ليست سهلة ولا يمكن أن يحدث ما يفكر فيه، قال محسن لنفسه إنها جميلة رائعة، أسرته عيناها وجعلته يتمناها لنفسه، هل يمكن أن يحصل عليها ؟ ولكن كيف فإنه سوف يسافر في الغد، وهذه الليلة تحتفل بعيد زواجها.
مضت السهرة وسط الضحكات والحكايات وعندما حان وقت العودة أصر عبد الرءوف أن يوصل محسن إلي منزله ولكن كان صعبا أن يعبر إلي الجانب الآخر من المدينة في هذه الساعة. إذن فليبق معهم وينطلق في الصباح فلم تبق سوي ساعات ودقت القلوب. عبد الرءوف دق قلبه عندما فكر أن يغمض قليلا فربما حصل علي الطفل، ودق قلب ليلي فالفكرة المجنونة قفزت ثانية. أما محسن فقد أحس أنه ربما يدخل في مغامرة يجرب فيها تأثير وسامته مرة جديدة .
في الطريق صمت الثلاثة فجأة. كل منهم يفكر كيف يتحقق ما يفكر فيه، هبطت الفكرة علي عبد الرءوف بينما كان يغلق باب السيارة أمام البيت. فتنهد بارتياح بعد أن عثر عليها وصاح في استسلام، لابد أن أعود فقد تركت محفــظتي علي المنضدة وفيها أوراق هامة، لن أغيب أكثر من ربع الساعة، ولم ينتظر الرد ومضي بسرعة ليتخلص من الموقف. وضعت ليلي المفتاح في قفل الشقة وكأنه يدور في قلبها يحدث دويا عاليا يفضحها كأنما تصيدت عاشقا صحبته إلي بيتها، وفي صمت أغلقت الباب وأضاءت الردهة وأشارت بيدها ومضت.
تردد محسن كثيرا قبل أن يقرر كيف ومتي يبدأ فإن الوقت يمر وسوف تضيع الفرصة قبل أن يتذوق الشهد. ليته لا يسافر غدا. ليلي كانت تسير كأنما هي منومة. إن الحصول علي طفل يستحق المجازفة. مرة تخطئ فيها وتسعد طوال عمرها. ربما محسن لا يفكر بالأمر. الفرصة نادرة يجب ألا تمر هكذا وتحركت قدماها، وتقابلا معا في منتصف الحجرة تحمل بين يديها بعض الملابس وقلبها يدق، تشعر بجفاف حلقها وبرودة يديها وارتعاش أطرافها، تحس بدوار وخدر يتسلل إليها. همست بكلمة بينما كانت تضع البيجامة علي يديه. أمسك يديها، وسقط ما تحمله علي الأرض. اقترب وقبلها. إنها مشدوهة وهو أيضا، ومضيا معا إلي نهاية الطريق.
تلكأ عبد الرءوف في الطريق يضيع الوقت. فرغت سجائره ومضي يبحث ويدور في الشوارع. هل ستترك ليلي نفسها، لا إنها شريفة حتي لو كانت مع الشيطان نفسه. ليتها تلين قليلا. طفل واحد فقط هو الحياة والبسمة. محسن زميل قديم لا يجوز له أن يطمع في زوجته. ليس هذا وقت المثاليات ولابد أن ينحرف قليلاً من أجله، وتأخذه الخواطر والهواجس، ثم يري أن شيئا لن يحدث، ثم يفكر في

طفل جميل.
أطلق عبد الرءوف نفير السيارة عاليا يعلن عن وصوله، وفتح الباب متعمدا أن يحدث أصواتا مسموعة .ووجد محسن جالسا يطالع مجلة ويدخن هادئا ولا يبدو أن هناك شيئا قد حدث فمضي إلى غرفته ليجد ليلي نائمة، وغير ملابسه في هدوء واندس إلي جوارها يقلب الأمر. كانت ليلي تغمض عينيها تحس أنها لن تقدر أن تنظر إليه. لقد ارتكبت الحرام إنها آثمة.. لا، إن ما حدث كان من أجله، من أجل طفل تمنياه معا سنوات، ومضت تفكر وتندم وتتمنى. أما محسن فقد نام حتى الصباح وودعهما وابتسامة خجلي تتردد علي كل الشفاه، وسافر، إنه لن يعود .
مضت الأيام وكانت المعجزة أن تحقق الأمل وظهرت أعراض الحمل وكادت ليلي تطير من الفرحة، وعبد الرءوف أيضاً. ومضيا يحلمان بالطفل ويرسمان حياته يوما بيوم، ولكن كانت هناك أوقات يحس كل منهما بالذنب فلا يرفع عينيه إلي الآخر، وتطوف سحابة الحزن. عبد الرءوف يعرف أنه دفعها إلي الخطيئة وأنها تحمل جنينا ليس من صلبه. لا .. إنها فاجرة ، لماذا تركته يأخذها بسهولة، وهذا النذل. لا إن النذل هو نفسه لقد تركها معه باختياره بعد أن تعمد أن يشربا كل ما قدم لهما من خمر، وكان يصب بيده في كأسيهما، الفكرة تمكنت بالتدريج، ويتأرجح بين حنينه لأمنيته وشعوره بالذنب والعار. كانت ليلي تلومه بلا صوت أن تركها رخيصة. الطفل عنده أغلي منها، لقد ترك صديقه يعبث من أجل وهم ربما لا يتحقق وكانت تستطيع الصمود. لا لقد ذهبت إليه بنفسها .
مرت الشهور والأمل يقوي عزمهما ويتناسيان. أيام ويتحقق الحلم. أيام صعبة لذيذة. الأمل العريض يفرض نفسه حقيقة واقعة. هذه الكرة التي تحملها فوق بطنها بداخلها طفل سيكون الدنيا كلها. أحضرا له الملابس واللعب والأدوات وغرفته كلها حتى المكتب والمكتبة. ربما كان ولدا واختاروا الاسم وشكل العيون وكل القسمات الجميلة التي يحبونها. ربما كانت بنتا، إذن سيتغير لون الغرفة وبعض الأدوات، سوف يحبونها ولابد أنها ستتزوج يوما رجلا عظيما.
انتهت الأيام الطويلة. اللحظات الأخيرة ويأتي إلي النور، إنه قاس جدا لا يريد الخروج. الألم يتجمع ويتكور في الظهر ويندفع ليصطدم بكل أعصابها وتكتم الصرخة تلو الأخرى. تتقارب الضربات والصرخات حتى لتكاد تفقد الوعي، وحبات العرق تتجمع علي جبينها وتنزلق تبلل الوسادة، ويشد علي يدها الطبيب متمتما في صوت غير مسموع بكلمات غير مفهومة. كانت الصدمة كبيرة قوية، وخيبة الأمل وضعت بصماتها، فقد ولد الطفل ميتا، وأصبحت الأيام رتيبة بطيئة كئيبة، وذاب الحب وأصبح كل منهما يتجنب الآخر.. وافترقا.

***

أيامهـــا الصعـــبة

فرحت سوسو. العريس طويل وأسمر وشكله لطيف. تباهت علي البنات بخطوبتها. فرحت أكثر بالإجراءات والاستعدادات الفستان الجديد والشبكة والناس. لقد حان وقت الخلاص من الأب الذي ترج المنزل صرخته وتجعل الصبيان يدخلون إلي حجرتهم جريا، أما هي فكان لها الدلال، وإن كان قد أصابها بعض أذاه.

في الكلية لمع خاتم الخطوبة ولمعت عيون الصغيرات وحسدنها علي بختها السريع فلم يكدن يخلعن مريلة المدرسة حتى بدأت الأحلام وتحقق حلم إحداهن. مرت شهور وهي تدور تنتقي الأدوات والملابس وتكومها في شقة الوالد، حتى إذا ما حان الوقت انتقل كل ذلك إلي شقة العريس تحلم بما ستفعله فيها، ثم كان اليوم الموعود بعد أيام عاصفة بين أبيها والعريس، أقسم أبوها بعدها أنه لولا دعوته للناس لحضور الزفاف لكان طلقها من هذا العنيد .

المهم العريس والمنزل الجديد وفرحة الزواج وكل يوم في الكلية تحكي للبنات ويضحكن كثيراً،وبعد أيام قليلة اكتشفت أنها حامل. فرحت وأعلنت للجميع فهذا شيء جديد سوف تمتلكه. بدأت الأيام تمضي ككل الأيام علي الناس إلا هي.

أرهقها مشوار الكلية كل يوم، وطبيخ كل يوم، وغسيل مرتين في الأسبوع، وزيارات الناس والأهل، وزياراتها لهم أيضا، ثم هذا الذي بدأ يتكور، علاوة علي مشاوير الدكتور وآلام الحمل تتزايد بمرور الأيام.

أهملت أناقتها وانتفش شعرها واختفي الكعب العالي، ثم أربطة الملابس، لبست الفساتين الواسعة تغطي بطنها التي برزت وكبرت حتى قصرت خطواتها وباعدت بين ساقيها لكي تسير بعد أن سمنت مع الحمل، وزوجها لا نهاية لطلباته، وانتابها شعور دائم بالقرف والقلق ولم تحس أبدا بمتعة انتظار المولود. فقط كانت تنتظر أن تنتهي من الحمل وأرهقها زوجها، كان يتركها أياما كثيرة ثم يعود يومين لا يريد إلا أن يستريح ويضحك وألقي المسئولية كلها عليها. تدفع الإيجار، وإيصال النور، وتذهب إلي الكلية، والطبيب وتنام عند أمها ثم ترجع يومين إلي بيتها عندما يعود من السفر، هاجمتها علامات الولادة. رزقها الله ابنة جميلة رقيقة فرحت بها ثم ألقتها إلي الجدة أياما ثم شهورا ثم سنوات. لا تستطيع رعايتها فليرعوها مادام الزوج يدور بعيداً، ولم تهتم الجدة بما تفعله ابنتها كانت فرحة بأول حفيدة لها .

زوجها المسافر دائماً يعود ليستريح، تشكو سوسو ويضحك كثيراً، كل الزوجات يتحملن مسئولية البيوت وأنت وطفلة واحدة تبكين منها. كم أنت رقيقة أو ضعيفة ويضحك ثم يسافر. رضعت الطفلة اللبن، وتكبر وتستغني عن أمها وتحب جدها وجدتها وكل الناس وأيضاً تحب أمها رغم أنها لا تراها كثيراً.

سوسو حامل مرة أخري. دارت علي الأطباء رفضوا إجهاضها وانتابتها الكآبة والتوتر .أصبحت دائماً ثائرة، نكدة ثم تصاعد توترها حتى أتي الزوج. انفجرت فيه وفجرت، ونسيت نفسها وابنتها ولم تر سوي الويل الذي ينتظرها في كل هبة نسيم حولها. وأشعلتها نارا.

أبوها احتضنها وطلقها بسرعة من زوجها. ندمت وبكت، وسطت الأهل والأصدقاء. ارتمت علي الأرض وهاتوه ياناس، وردها زوجها. حسبت عليه أنه فرط فيها مرة وأنه سوف يفعلها ثانية. فلتكن واعية. ادخرت من مصروف البيت وفتحت حسابا في البنك تضيف إليه ولا تسحب منه أبداً. أرهقته بالنفقات والملابس والأدوات وبدلت كل الأشياء، وكل شراء يرتفع رصيد الحساب .، ثم اتجهت إلي الأهل والأصدقاء فأبعدتهم واحدا بعد الآخر ليبقي وحيدا.

بوصتان زيادة في مقاس الوسط وأربع في محيط الأرداف، وشعرة بيضاء ظهرت. كانت قد تعدت الأربعين. توترت واحتارت. المشيب، وعلاجه معروف لكن الباقي ما علاجه. قرأت وسألت وفكرت وعرفت الكثير، أصبحت دكتورة تستطيع أن تجد عندها الإجابات، ركبها الهلع أصبحت لا تسأل إلا عن السن. إذن سوف يهرب منها، يلزم إحكام الحصار أكثر، وجلست تحرسه حتى لا يرفع عينيه إلي أخري.

يوم جديد وخبر جديد. سوسو حامل مرة ثالثة. وتهرب كل مقومات تماسكها، انهارت، ورأت ذلك مصيبة جديدة، سوف يضحك الناس عليها. دكتور صغير علي أول السلم وافق وأجهضها، وأجهض فيها باقي إنسانيتها. أحست أنها أخف من الريشة، والسعادة تلفها، اعتقدت أن الله قد رضي عنها وأزاح حملها، فأزاحت الحياء والعقل. لابد من مضاعفة الجهد والحصار والإرهاق حتى لا يفلت العنيد، تراه يختلس النظرة إلي كل امرأة. أعلنت العصيان. رفضت العمل بالمنزل. فقط مانيكير وفساتين وكوافير ومشاوير النادي والصديقات. ضغطت أكثر ثم تنمرت فهاجت وعابت في رجلها أبو أولادها الذي تحمل ما رآه منها خلال السنوات وتأكد هذه المرة أن الأيام القادمة ستكون أصعب كثيرا ولن يقدر علي تحملها .

ذات يوم حار من أيام يوليو والعرق يسيل والجو خانق، رجعت سوسو إلي البيت. المفتاح لا يفتح. دقت الجرس. الباب لا يفتح. الجارة فتحت. قالت الأستاذ سافر انتظري علي تليفون الوالدة. انتظرت يوما ويوما. أيام ولا حس ولا خبر. دارت وسألت وحتى أولادها اختفوا .جرس الباب وعسكري ودفتر وورقة وسأل عن اسمها. دوار، عرق، دوخة ،أصوات بعيدة تقترب. فتحت عينيها ووجدت أمها تناديها .. فوقي ياسوسو.

***

حكايـة لكل زمــان

لم أكن أعرف اسمها الحقيقي .عرفت فقط اسم الشهرة وهو المسجل في شهادة ميلادها، وشهادات مدارسها وشهادة البكالوريوس. بمرور السنين اكتشفت اسمها الحقيقي، فمرة الألف ومرة الميم، لأصعق عندما قرأت الاسم كاملاً. كان أمنا الغولة!

كل السنوات التي مضت قضيتها أتفاداها، ثم أصبحنا نخافها جميعا ونتقي شرورها وصراخها، نختفي بين الستائر وتحت الأسرة وفي الغرف البعيدة حتى لا نري هيئتها وشعرها المنكوش وعينيها التي تطق شرارا. لابد أنه لديها يوم تعرفه جيدا سوف نكون قد سمنًا فيه ولظلظت أفخاذنا ثم تلتهمنا واحدا بعد الآخر. ولكن بمن ستبدأ؟ وحتى يأتي هذا اليوم، ماذا نفعل وكيف نهرب وقد ربطت كل منا إليها بخيط قوي متين نراها لا تغفل أبدا حتى أنها تنام فاتحة عينا وتغمض الأخرى، بينما أنفاسها التعالي تنفث اللهب والدخان والحيرة حولنا .إنها ليست دائماً بهذه الصورة. فإنها رقيقة المظهر. ناعمة الملمس. أنيابها صغيرة .وعيناها أيضاً، أراها هكذا عندما تكون هادئة، وساعتها أقترب وقد أحادثها، وهكذا أنجبت منها الأطفال .

كانت تنتابها حالات أمنا الغولة عندما تثور، وهذا يحدث كثيراً، ويرتبط ذلك بحركة القمر والنجوم، والمد والجزر، وأيضاً حركة الشمس وبدايات الشهور العربية والإفرنجية، وأثناء دورتها الشهرية. باختصار لم يكن هناك داع لأجهد نفسي وأتوقع المرات التي تبدأ فيها نوباتها فإنها حتما ولابد أن تكون قريبة، يفجرها أي شيء. والصمت أبلغ من كل الكلام، والهدوء وبرود الأعصاب أحلي علاج، أقابل به الهياج، فربما كلمة غير مناسبة أو حركة لا لزوم لها تطيح بعين أحد الأولاد، أو عيني أنا، أو ربما أصابني الصمم من كثرة الصراخ. احترت، وسألت وفتحت المندل والبخت، وزرت الأولياء والنصابين، والقبور وقرأوا تنوة الفناجين واحتاروا جميعاً .

اقترب مني عجوز لئيم مكار عركته الأيام وحنكته السنوات. همس في أذني، انتظر بضع سنوات فإنها حتما سوف تهدأ بفعل الزمن أو المرض أو الموت، والصبر مفتاح الفرج. واطمئن فإن غيلان هذا الزمان لا يأكلون اللحم. وهدأ بالي واستراح، فعلي الأقل لن أموت هذه الأيام. أضاف العجوز ضاحكا ابتعد عن الأطباء والأدوية والحشيش فإن كل ذلك لا يفيد حالتك، ثم قال جادا: لماذا لا تفكر في السفر ففي السفر سبع فوائد، وثامنة لك أن تبتعد عن أمنا الغولة. هذه السيدة المهولة.

***

حـــوار الأربعـــة

هل تدري أنك لا تعيش حياتك كلها ؟ إنك تعيش فقط أقل من ثلثها. سكت فهمي وهو يحدق في وجهي ليري تأثير كلماته، ولما رأي تعجبي واهتمامي بما يقول نظر إلي الأستاذ حمزة ليري انطباعه هو الآخر، وتحول إلى صديقنا سليم أيضاً، ليكتسب وقتا أطول ليفكر في كلماته التالية وليشد انتباهنا أكثر، ولما جمع إليه الأنظار والاهتمام استطرد قائلاً متوسط أعمارنا ستون سنة، العشرون الأولي لا نكاد نعيشها، فإننا نكون فيها أطفالا لا ندرك، ثم صبية نلهو، ونتعلم لنجد أنفسنا مسئولين بعد ذلك للأبد، أما العشرون الأخيرة، والتي نحن فيها الآن بعد أن كبر الأطفال وتزوجوا وجعلونا جدوداً، فإنهم يجنبوننا الأمور وقد يستشيروننا مرات يعتمدون علي خبراتنا وحكمتنا عندما يعجزون عن الحلول ثم نبقي لنراقب ما يفعلون في غيظ مكتوم.
صديقى فهمي أثار مشاعرنا عندما قال: لم تسألوني عن العشرين سنة الوسطي، هل تعرفون كيف تمر ؟ حمزة تطوع، وقال: شباب وانطلاق وشقاوة واختيارات للعمل والسكن والزوجة والأصدقاء. أكمل سليم: هذه سن الفتوة والعمل والإنتاج والبناء. أعجبني الحديث فسألت فهمي: كيف تراها أنت ؟ قال فهمي بعد أن تنهد وأطرق برهة: هي سن ننسج فيها مشاكلنا لا ندري كيف ستكون في النهاية، ننسجها بكل صفات الإنسان بخيوط العزة والكرامة والشهامة وكلمة الشرف والكبرياء، وصفات جميلة أخري، وأيضاً دون أن ندري يتدخل إراديا ولا إراديا الأنانية والنرجسية، والطمع والخيانة، والمصالح ونكون مدفوعين بحماس الشباب، فندخل في خلافات مع الإخوة حول الميراث، ومع الزملاء حول المراكز والوظائف، وقد تكون مع الجيران، ودائماً مع الزوجات.
هيا نحسبها كيف تمر. ثماني ساعات ننامها كل يوم وثمان أخري نقضيها في العمل ثم الثماني الأخرى فهي لكل شيء تأكل وتشتري وتبيع وتتزاور وتتعارك ويتبقى وقت قليل لكي تعتني بنفسك، ربما تجد وقتا لكي تحلق ذقنك أو تنفرد في الحمام، أو تفكر في أمورك، ويجذبك بعد ذلك أحد الأولاد لكي تساعده في حل واجباته، وتعذبك طلبات زوجتك، وطبعاً جربتم وعشتم ما أقوله. ماذا تبقي من الستين عاما التي عشتها حتى الآن، وأجلس معكم أتفلسف كيف قضيت حياتي أقيمها بعد فوات الأوان. سكت فهمي وأطرق ينظر إلي الأرض مستمرا في التفكير فيما قال، بينما ضحك سليم وهو يقول حسبتها مغلوطة يا فهمي ليس من أصول الحساب إغفال الأشياء.
حمزة عدل كرسيه ليواجه فهمي، وانطلق يقول: أحسبها من الأول معك. سن الطفولة والتلمذة والشقاوة واكتساب الخبرات واللامسئولية، كلها انطلاق ومتعة وحيوية وأحلام ومغامرات، تجد فيها الفرح باللعبة، وقطعة الحلوى والبسمة البريئة، انظر إلي أحفادك وسوف تري مدي سعادتهم عندما يحصلون علي شيء جديد، أو عندما يحققون شيئا من أحلامهم. ثم عندما يكبرون قليلاً، فإنهم

يدخنون ويصاحبون الفتيات، ويهيمون في الحب ويحلمون أن يكونوا آباء، ولهم بيوت وزوجات، وإلي أن يحققوا أحلامهم فإنهم يدورون يختارون الأصدقاء والصديقات ويختبرون قدراتهم، ويتعلمون من بعض ويعيشون شبابهم كل بطريقته. أنا نفسي تزوجت في الخامسة والثلاثين ،وتمتعت بكل دقيقة قبل الزواج وعرفت كل صالات وملاهي القاهرة وحتى عندما سافرت إلي أوربا درت أكتشف كل شيء وشربت من كل الأنواع مع الأصدقاء، نفاضل بينها أيها أقوي، وأينا يتحمل ويظل متمالكا لقواه دون أن يسكر، وصاحبنا النساء من كل شكل ولون ،وعشت حياتي بالطول والعرض.

حمزة انزلق يحكي ولذ له أن يستعيد الذكريات وقال بعد أن تزوجت وبدأ وصول الأولاد مع انشغال حرمنا وجدت أنه من الأفضل أن أستقل بوقتي وتركت لها أمور البيت والأولاد، لأستمتع مع الأصدقاء في كل مكان. من سنين جلست هنا معكم علي هذا المقهى فهذا أفضل من البيت، ليس هربا منهم ولكن لابد أن أتمتع بحريتي تماماً، كالزمن القديم لا يفترق شيء علي الإطلاق.

صاح فهمي ضاحكا كما قبل الزواج تماماً في كل شيء ..حتى الحريم طبعاً، رغم الشعر الأبيض والنظارة والسنين كلها لم تجعلك تتوب، أنت كما أنت، لم يزد عليك إلا الزوجة وولدان وبنتان، فقط أقللت من الشراب بأمر الطبيب وخوفا من الموت، أما أنا فقد أقلعت عن كل هذه الأمور بعد الزواج واكتفيت بزوجتي وبعض حريتي، أمارسها معكم علي المقهى واستولي أحفادي علي الباقي. لم يستسلم حمزة ودافع عن كيانه وحريته أن يشرب الخمور وأن يصادق النساء ويتمتع بوقته وحده فمازال فتيا وبإمكانه أن يفعل كل ما يريد، وأدار الكلام فكها يتحدي فهمي، أنه مازال الأقوي حتى الآن، واعترف فهمي له بالسبق والقدرة منسحباً من مباراة أقلع عن ممارسة لعبتها من سنوات كثيرة وابتسم حمزة منتصراً في فخر عجوز.

استرسل حمزة يقول نحسبها ثانية. أنا عشت كل عمري، حتى ساعات النوم أقضيها أحلم، وأذهب للعمل وكأنه نزهة أمارس فيها كل ما أريد والرزق علي الله. أما المسئوليات فأوزعها علي من حولي بالعدل. في العمل الموظفين كثير وكل واحد له نصيبه. في البيت مسئوليات الزوجة معروفة من زمان، والأولاد كبروا وكل واحد أخذ طريقه، والباقي لي أنا أستمتع بكل دقيقة سواء قل المال أو كثر، وعلي قدر لحافك يا فهمي يا صاحبي، ويوم عسل ويوم بصل، لكن المهم أن تنام آخر الليل مبسوطا حتى تستطيع الاستمتاع بيوم جديد. إذن أنا عشت الستين سنة كلها، إلا كسورا صغيرة ولكن أن تقول عشت منها الثلث أو الربع فهذا حساب أشك فيه.

الأخ سليم لم يعجبه الكلام وقال يا جماعة لابد أن نضع أساساً للحساب ثم نحسب بعد ذلك كم عشنا. أولاً، لابد أن نسلم بأنه لكي تقدر الصحة أن تذوق المرض، ولكي تحس متعة المال أن يمر عليك الفلس، وحتى تحس السعادة لابد أن تجرب الألم ولابد أن تحزن حتى يصبح طعم الفرح جميلاً، هكذا الحياة. ولكي تسكر وتعاشر النساء، كيفما تحب فلابد أن يكون لك ضمير كسلان، فإن نشط فالتوبة

ستكون لذيذة ،وستتعلق بها وتجد كيانك ووجودك وإيمانك وندمك ألا تعود. ليست الحياة مخالفات وذنوبا ومتعا فقط، فلها وجهها الآخر أيضا، ولابد أن تعطي وعلي قدر عطائك سوف يكون لك مقدار ما أعطيت .. سلف ودين، وسوف تسدد حتما وأنت حي وحتى إن مت فلك رصيد ستدفع منه. ولك أن تختار العملة التي تدفع بها دينك، وقد تكون عملتك الصحة أو المال أو الأولاد أو الزوجة، أو حتى من رضاك عن نفسك ومن المؤكد من رصيدك في الآخرة.
تقمص سليم دور المعلم الناصح وانهمك قائلاً: لقد عشنا الطفولة والشباب والرجولة وتعلمنا وعلمنا من بعدنا أولادنا، ونعمنا بالصحة والمال، والحياة المستقرة وتعبنا من مشاكل الأولاد والزوجة والعمل وقلة المال، بعد أن مر علينا كل ذلك وأخذنا وأعطينا توقفنا نلتقط الأنفاس، ونعيد الحسابات، ولم يبق في العمر قدر ما راح وليس أمامنا إلا أن نتوب ونتعبد نادمين علي ما فرطنا. اتجه سليم مفاجئا إلى صديقنا حمزة وسأله: كم عشت حتى الآن ؟ اثنين وستين سنة! لقد عشتها كلها، وخبطه علي فخذه وقال: هل تدري حجم ديونك حتى الآن ؟ انك تحتاج إلي اثنين وستين أخري لكي تكفر عن سيئاتك يا رجل، وقهقه ضاحكا أنه غلبه في المقال. ضحك حمزة ضحكة مبتورة ثم أطرق إلي الأرض قليلاً، وعندما رفع رأسه لمحت في عينيه دموعا لمعت وقام واقفا وقال كفي علينا اليوم.
موعدنا كان دائما في الصباح نلتقي عند المقهى نراقب الطريق ونتحدث ونحكي الجديد فيما يحدث لنا وحولنا، وننقد الناس وبرامج التليفزيون والزحام والأسعار، ونقول كل يوم ونجد دائماً ما نتحدث فيه وننساه. اليوم حضرنا جميعا، مجموعتنا والمجموعات الأخرى حولنا من زبائن المقهى الدائمين ونتناول الصحف والشاي والشيشة والضحكات. اكتشفت أن الأستاذ حمزة قد تأخر كثيرا عن موعده وبدا مكانه خاليا وسطنا، وتملكني شعور مفاجئ بالانقباض لا أدري له سببا، وعندما انتصف النهار ولم يحضر كنا نتناقش في السبب الذي أخره عنا اليوم، وفجأة رأينا ياسر الابن الأكبر لحمزة مارا أمام المقهى فاستوقفته وعرفنا أن والده مريض، وتداولنا الأمر، وذهبنا لزيارته في المساء ووجدناه شاحبا بعيون قلقة وكأنما هناك داخله كلمات محبوسة تريد الانطلاق، ورفع عينيه إلي سليم وقال: كان عندك الحق. لقد كان كلامك بالأمس مؤلما وقلب المواجع، وطوال الليل شريط حياتي مر أمامي، ذكرني بكل ما كان، ووجدت أني لم أكذب ولم أسرق أبدا، وأن علتي كانت الخمر والنساء وغلباني طول العمر فأبعداني عن العبادة، وكنت أظن حتى الأمس أني قد ملكت الدنيا في الوقت الذي بعدت فيه عن الصواب. وأنت قلت الحق أنه لابد لي من ستين عاما أخري أعيشها لأكفر عن ذنوبي، وأنه عندما ينشط الضمير فإن التوبة ستكون لذيذة وسأتعلق بها. لقد أيقظت ضميري أمس ونويت التوبة يا صديقي، وضحك خجلا ضحكة قصيرة.

قبل أذان الظهر تجمعنا أمام بيت حمزة وأخرجوه إلينا يحمله أربعة ومشينا جميعا خلفه مع أولاده والأقرباء والجيران، ونظرت إلى فهمي فوجدته متجهما بنظرة صارمة بعيدة ووجه حزين، أما سليم فلم يتمالك نفسه، وانهمرت دموعه صامتة، يمسحها بين الحين والحين ثم نظر إلى قائلاً: إن حمزة كان يود أن يعيش ستين سنة أخري ليكفر عن سيئاته، تري هل قبل الله توبته عندما نواها، قال فهمي إن الله غفور رحيم، ورحمته وسعت كل شيء.

* * *

فوزية ماتت مرتين

الفكرة كانت موجودة منذ أكثر من سنة، وكان يؤخرني شيئان، أولهما التخلص من الجثة ثم كيفية التخلص من المسئولية أمام البوليس. كنت أفكر فيهما دائماً وقد قرأت الكثير عن الجريمة وكيفية تنفيذها، ثم اهتممت أكثر بدراسة الأسلوب البوليسي في جمع خيوط الجريمة، ورسم الخطط التي تحاصر المجرم وتشير إليه، ثم يمسكون به والأدلة معهم فينهار ويعترف. الجريمة تقدمت كثيرا في السنوات الأخيرة قبل أن يلفظ القرن العشرون أنفاسه، وأصبحوا يستخدمون أشياء أكثر سرعة وأقل ضجة في الوقت الذي لا تترك آثارا إلا ما يتركه المجرمون الأغبياء وراءهم، كما لو كانوا يعطونهم دليل اتهامهم بأيديهم .

حظى السعيد هو الذي جعلها تعطيني بيدها المفتاح، ففي ليلة طلبت أن أناولها قرصين من الأسبرين، وفي ومضة الفكرة الخاطفة ناولتها قرصين من منوم قوي، أخذتهما مني ولم تشكرني وتناولتهما علي الفور وذهبت لتنام .دقائق ربع الساعة كانت كافية لتستغرق فوزية في النوم وكانت مناسبة لأستقر علي الرأي الأخير، وليكن ما يكون فلن يسوء حالي أكثر مما أنا فيه، ودخلت غرفة النوم لأري فوزية نائمة تماما وهززتها بشدة لأتأكد من نومها وعندما لم تستجب لي بدأت العمل .

أحضرت قطعتين من حبل قديم كان لدي وأوثقتها ويداها خلف ظهرها والآخر حول قدميها، وحملتها ووضعتها في »البانيو«، وعلقت الحبل في ماسورة الحمام وشددته بقوة لتصبح فوزية معلقة من قدميها تتأرجح قليلاً، وفتحت عينيها في كسل شديد وأغلقتها مرة ثانية، وكانت هذه نظرتها الأخيرة لترى الدنيا مقلوبة كما أرادت أن تراها. أسرعت إلى المطبخ وأحضرت سكينا مناسبة ووقفت أمامها أعاتبها صامتا أنها استجلبت لنفسها هذه النهاية، وغير نادم، ولم تتردد يدي. نزعت عنها ثيابها كلها ثم تفرست فيها، وعجبت من عواطفي واحساساتي التي كانت متدفقة إليها، فقد وجدتها الآن لا تستحق كل ذلك العناء الذي كابدته سنوات خمسا كاملة بذلت فيها كل ما أستطيع دون جدوى وامتدت يدي بالسكين .

أذكر تلك الأيام البعيدة والتي كنت أتوهم لنفسي فيها السعادة، عندما تكاثروا علي كلهم وكنت وحدي، أقنعوني أن أشرف وضع يمكن أن يكون عندما أكتب مؤخر المهر عشرات الألوف، ومثلها علي شيك مسحوب علي حسابي بالبنك، بدلا من كتابة قائمة بالأثاث كالأوباش، فنحن عائلات راقية لها تصرفها الخاص، وفي المقابل اكتفوا بالشبكة الذهبية رمزا بدلا من النقود، وتركوها لي أنفقها في شهر العسل. لما مضي كل ذلك ومرت الشهور ندمت علي نزعتي الكذابة أن أكون من أكابر القوم، ووجدت أني قيدت نفسي بيدي، وحتى لو عشت كثيرا أجمع كل رزقي، ما كان يكفي أن أسدد هذا الدين المؤجل، ولا سبيل أن تتنازل أبدا، ولفها

حلم الثروة إن طلقتها والأمان أني لن أفعلها مادمت غير قادر علي السداد.
امتدت يدي بالسكين تدور حول رقبتها ضاغطا بقوة. انفجر الدم كثيفا وغطي وجهها وأصبح شكلها بشعا بهذه الصورة وتلوث »البانيو« برشاش الدم. شخير مخيف انبعث من فوزية تحاول التنفس من حنجرتها المذبوحة، واختلاجات عنيفة تصارع الموت تخفت بالتدريج ثم استسلمت وأسلمت روحها لتصعد إلى الجحيم سريعا. بهدوء أشعلت سخان الحمام وفتحت صنبور المياه الدافئة وصرت أزيل الدم من فوق وجهها، ومن علي جدار البانيو، وتركت المياه تتدفق وتجري حاملة الدم إلى البالوعة، وأشعلت سيجارة ووقفت أراقب الموقف أفكر في الخطوة التالية بينما كنت أرتشف كأسي الثانية.
الدليل الذي يبحث عنه البوليس لابد أن يكون ماديا في البداية، لذا يجب أن أجمع كل الأدلة المادية علي فعلتي وأتخلص منها وأولها الجثة.. جثة فوزية. لم أكن أتصور في أي وقت مضي أني قادر علي أن أفعل ما أتيت، ربما طافت الفكرة في رأسي كأمنية ثم أبعدها خوفا من العواقب، ولكن آن الأوان للتفكير الجيد والعمل الدءوب بدقة متناهية، وإلا فقدت كل شيء. عدت إلى المطبخ وأخذت أشياء تساعدني ورجعت إلى فوزية وتأكدت جيدا أنها ماتت، وأن الدم قد توقف. الآن إلى العمل وخلعت قميصي ثم تناولت الكأس الثالثة أتشجع بها لأبدأ.
بشرتها الناعمة الجميلة التي كانت، يجب أن أسلخها كلها، وفعلت ذلك وسلخت كل الجلد حتى فروة رأسها ووضعت كل ذلك في حقيبة من البلاستيك، وأصبحت فوزية الآن شوهاء لا يمكن التعرف عليها، وكانت هذه هي الخطوة الثانية، الثالثة أن أفصل اللحم عن العظم. وفعلت ووجدت نفسي أهتم بالقلب، فقد كنت أتوقع، أن يكون أسود اللون، ولكنه كان أحمر قانيا صغير الحجم فأثار عجبي، ولم أجد فيه لا الحنان ولا الحب ولا حتى أي شيء يشير إلى أنه يوما أحس بي، وتركته لأري أمعاءها مليئة بالسوائل المقززة فأفرغتها في المرحاض ووضعتها إلى جانب في حقيبة. بدأت أفصل اللحم بهدوء، وأصبحت فوزية قطعا صغيرة في بضع حقائب لا يتعدى وزنها ثلاثين كيلو جراما علي الأكثر. أما العظام فقد كسرتها جيدا ووضعتها مع الجمجمة التي هشمتها كثيرا، وللعجب فإن أحدا من الجيران لم ينتبه لأصوات الخبط عندما كنت أكسر العظام بساطور كنا نستخدمه أيام الأعياد عندما نشتري الخروف. ولن أشتري خروفا ولن يكون هناك خرفان بعد ذلك. الآن لدي أربع حقائب لابد من التخلص منها، ،ولكي أركز تفكيري تناولت الكأس الرابعة.
يتزن تفكيري جيدا بعد الكأس الرابعة لذا قفز إلى خاطري مفرمة اللحم الجديدة التي اشتريتها لها الشهر الماضي، لم لا أجربها حتى أحصل علي فوزية مفرومة، ويسهل التخلص منها. أعددت المفرمة وأوصلت لها الكهرباء، واستغرق الأمر ساعتين تقريبا حتى انتهي الفرم وبقي الآن إزالة الآثار الناتجة عن هذه الليلة الصعبة. خلعت كل ملابسي ووضعتها مع ملابس فوزية الممزقة، واستخدمت الصابون والكلور والماء الساخن في غسيل البانيو والأرضية وأدوات المطبخ، وأصبح كل شيء نظيفا تماما، فاغتسلت وارتديت ملابس أخري، أستعد

لرحلة التخلص قبل أن يظهر ضوء النهار.
شقتي في الدور الأرضي، والسيارة أمام الباب تماما، لذا كان الأمر سهلا فدليت الحقائب من الشباك واحدة بعد الأخرى قدر استطاعتي ثم تركتها تسقط. أغلقت الشباك وتناولت زجاجتي فالأمر يستحق الاحتفال، وخرجت ووضعت حمولتي الثمينة في حقيبة السيارة، وانطلقت في اتجاه الطريق السريع إلى حلوان وفتحت الراديو لتنبعث منه أنغام حالمة، وأشعلت سيجارتي وتنهدت نفس الراحة أن تم كل شيء بسلام. مثلها تستحق الرجم حتى الموت، هناك يضعونهن في جوال من الخيش، ويلقونهن في الحفرة العميقة يتجمع الناس حولها، يتسمعون البكاء والنشيج وآهات الألم في لذة خبيثة، فيقذفون الحجارة بقوة عقابا ورحمة، حتى تصيبهن في مقتل ويمتن بسرعة بدلا من العذاب الطويل. كل من يرمي حجرا يشعر أنه ينفذ الأمر الإلهى برجم المعصية والعاصية أو كأنه يرمي ذنبه متخلصا منه، ويتكاثر المتطوعون يقذفون الأحجار وتظل الآثمة تتقافز من الألم حتى تنهد وتموت، ثم يحملونها في جوالها الملطخ بالدم حيث يدفنونها بعيدا.
لقد أنقذتها من العذاب الطويل، بل أنا رحيم جعلتها تموت دون أن تحس. لا ليست هذه شفقة مني بل هو انتقام عاقل هادئ دون ضجيج حتى لا أتعرض لمشكلات قد لا أقدر علي حلها وأتورط فيها، لست أنا الوحش الذي يتلذذ بالعذاب، فقد حصلت علي حقي، وهي استحقت الموت ولست آثما فإني مسحت عاري الذي أشقاني، وهكذا لن تستطيع البوح بسري أبدا، ورفعت الزجاجة إلى شفتي أرتشف منها ما يعينني علي ما تبقي من المهمة الصعبة.
أعرف منطقة يمين الطريق يلقون فيها بالمخلفات وسوف أترك كل ذلك هناك وأعود، ولكن توقفت فقد خطرت لي فكرة أن أنقل الحقائب إلى جواري، الفكرة كانت سهلة وبسيطة فكنت آخذ كيسا من اللحم المفروم وأفتحه وأدع القليل يتناثر علي الطريق أثناء السير، وسوف تدوسه السيارات بعد قليل ثم لا يكون هناك بعد ذلك أثر لفوزية. اضطرني ذلك إلى الوصول إلى حلوان ثم العودة علي طريق الكورنيش، ثم ظللت أسير حتى وجدتني قرب المطار عندما انتهي آخر كيس من اللحم المفروم. توقفت بعد أن لاح نور الفجر ورأيت علي البعد كثبانا رملية، فأخذت كيس الملابس ووضعت فيه كل الأكياس الأخرى، وسرت حتى هناك وصنعت حفرة صغيرة بيدي، وأشعلت النيران في كل ذلك وانتظرت حتى أتت النار علي كل شيء، وكنت حريصا فقد نزعت كل الأزرار والأجزاء المعدنية ووضعتها جميعا في كيس صغير ألقيته من فوق الكوبري في النيل ورأيته يغوص، ولم أكن من الغفلة بحيث آخذ ملابسها الممزقة فقط بل وضعت معها أربعة أطقم كاملة لها في حقيبتها القماشية، والتي كنت أسميها شنطة الغضب والتي كانت تستخدمها كل مرة عندما تستعد لمعركة جديدة تنوي فيها هجري لتقيم عند أمها أو أختها. تبقي معي حقيبة العظام وحرقها سوف يستغرق وقتا طويلا، وعزمت أن أفرغها في منطقة المخلفات وأحرق الحقيبة حتى لا يتبقى شيء، وتوجهت إلى هناك خلف مباني مصر القديمة لأجد عربات الزبالين تغادر مقرها متجهة إلى قلب المدينة، وقد نام قائدوها تجرها الحمير في بطء بليد،

واخترت الأخيرة منها، وكان يقودها صبي نائم أيضا فأفرغت الحقيبة واستيقظ الغلام علي صوت الارتطام بأرضية عربته وابتسم عندما أمسكت يده جنيها كاملا، وصاح في فرح نهارك فل يا أستاذ ولوح بيده في سعادة ومضي ولم ينظر ثانية لا إلى ولا للسيارة، اذا فحظي سعيد تماما ودرت للخلف وانطلقت عائدا.
وعندما أوقفت السيارة في مكانها أمام المنزل وجدت الحال كما هو، ومازال الناس نياما وقد فرغت زجاجة الكونياك، ودخلت شقتي لتصدمني رائحة الكلور الذي غسلت به الحمام والأدوات تملأ المكان. الرائحة جذبت لي فكرة صائبة تماما. من مكتبي اتصلت في العاشرة صباحا بشركة للنظافة واشتكيت لهم غزو النمل والصراصير، فأرسلوا اثنين من العمال رشوا الشقة كلها بكيماوياتهم ذات الرائحة النفاذة، وقاموا بعملهم جيدا وقدم لي أحدهم إيصالا بعشرين جنيها دفعتها لهم ومعها إكرامية سخية. هكذا لن تستطيع الكلاب البوليسية كلها أن تشم أثرا للدم في أي مكان. واتصلت بحماتي الست نجيبة أشكو لها أن فوزية لم تعد بالأمس إلى البيت فتعجبت وقالت أنها أوصلتها حتى باب بيتي وأوصتها ألا تثير المشاكل، فقلت أبرهن لها عن عدم وجودها وأنها قد خرجت بعد ذلك، أنها قد أخذت معها شنطة الغضب كعادتها كل مرة وفيها بعض ملابسها وكل حليها الذهبية ولم تعد حتى الآن.
حليها الذهبية خطرت لي فقط أثناء المكالمة، لذا جمعت كل الخواتم والسلاسل والأساور وكل الذهب وخرجت، وعندما عدت كان معي أكثر من ثلاثين ألف جنيه ثمن الذهب فقد بعته كله لعدة محلات ولم يشك أحدهم أبدا، ودفعوا فورا وبسعر السوق، ومن كان يساوم منهم كنت أتركه وأمشي لينادي علي ويشتري، فاللصوص والقتلة لا يساومون في الثمن أبدا ويرضون بسرعة، وأنا لست قاتلا فقد أتاحت لي فوزية عند عمد أن أفعلها، ولست لصا لأني لم أسرق بل هي سرقتني خلال خمس سنوات واشترت الذهب وعاد لي ثمنه ثانية. وشعرت أنه لابد أن أتخلص من هذه النقود بسرعة، ولم أودعها البنك حتى لا يكون ذلك دليلا لإدانتي، فتركتها عند أخي ولم يسألني عن مصدرها ولكنه تذاكي عندما قال أني أدخر النقود خلسة من فوزية حتى لا تحصل علي بعض منها.
حماتي الست نجيبة التي ندمت مرات كثيرة أني تزوجت ابنتها، والتي هي صورة مصغرة منها، حماتي هذه كانت كل نكدي، وشجعت فوزية علي التمادي واحتضنت كل نزواتها وجرأتها ثم فجورها، ليتني انتظرت حتى تحضر لتبيت لكنت ذبحتهما معا، ولكن الآن مادمت قد تخلصت من فوزية فما هي إلا فترة قصيرة وينقطع هذا الخيط إلى الأبد.
أيام ثلاثة مرت وآن الأوان أن أطلب الست نجيبة ثانية بالتليفون كما أفعل كل مرة حتى لا يكون هناك ما يثير من أي اتجاه. دائما أفعل ذلك فور تغيب فوزية، أسأل عنها مرة ثم بعد ثلاثة أيام للمرة الثانية، ثم بعد يومين أذهب إليها عند أمها أو أختها ونكمل عندهم العراك، ونتصالح ونعود إلى منزلنا لنستعد للمرة التالية بعد أسبوعين وقد تطول المدة إلى شهر، وكلمت الست نجيبة التي قالت أن فوزية لم تتصل بها ولا بأختها ولا تدري أين ذهبت. ثرت غاضبا مهددا

وأنهيت المكالمة لأتوجه إليهم وألومهم جميعا عن تفريطهم في الرقابة علي ابنتهم التي تدللت كثيرا حتى أن هذه المرة ذهبت دون أن تخبرهم إلى أين. تملكني التمثيل وتقمصت دوري جيدا فطيبوا خاطري لأهدأ، ووعدوني أن يجدوها قريبا وأن غضبتها هذه هي الأخيرة وأنها ربما اختفت عند صديقة لها، ولكن لابد أن الأمور ستكون بعد ذلك جيدة تماما بضمانتهم جميعا.. هكذا يقولون دائماً.

قاعدة بوليسية قديمة تقول أن المجرم يدور حول مكان جريمته ليري ردود الفعل ليتشفى أو ليطمئن أن الأمور تسير في صالحه، وهكذا كنت بالمنزل أعتني ألا يكون هناك دليل، ثم فكرت أن أسير في نفس طريقي ليلة تخلصت من فوزية مفرومة، وسرت ووجدت أن الدنيا كلها كما هي ولم يتغير شيء ولا أثر للمفروم فوق الطريق، وعبثا حاولت العثور علي مكان الحفرة التي أحرقت فيها الثياب والأكياس، وسررت جدا عندما لم أجدها ثم توقفت في نفس المكان الذي ألقيت فيه بالكيس الذي يحتوي الأزرار والأجزاء المعدنية في ملابسها وحقيبتها وكنت سعيدا للغاية حتى أني وجدت نفسي أدندن بلحن قديم في بهجة بالغة.

القناع الذي كنت أرتديه دائما أمام الناس، في العمل والسكن ومع أهل فوزية، والذي رسمت عليه الحزن والقلق والقهر أنها غلبتني، وتركت المنزل غاضبة، أرهقني للغاية. حتى أني كنت أستعجل الوقت الذي أعود فيه للمنزل، ثم أتضايق من وحدتي لأدور أبحث في أركانه عن أي شيء يشغلني، ويتجلى لي طيف فوزية الذي كان في البداية يسعدني أني قهرته، ثم بدأ يقوي ويخيفني أحيانا وأهرب منه بالنوم أو بكأسين من الكونياك لأدخل في النوم دون أن أفكر فيما سوف يحدث غدا ولم أحس بالندم يراودني أبدا.

بعد أن مر أسبوع بدأ القلق يراود الجميع عن اختفاء فوزية، وشاركتهم اللهفة والبحث عنها في كل مكان يمكن تواجدها فيه، ثم استقر رأيهم علي إبلاغ البوليس بعد فشل البحث عنها في المستشفيات والأقسام وشاركنا البوليس في ذلك دون جدية واضحة، خاصة بعد تأكدهم من أنها دائمة التغيب عن المنزل، وأنها في مرات كثيرة تفتعل الغضب والمشاجرات لترتاح من مضايقاتي، وهكذا تركزت شكوك البوليس في أنها هربت من البيت وأنها ستعود ولم يوجه اتهاما لأحد انتظارا لما يسفر عنه المستقبل.

عندما مر شهر كامل اتحدت عائلة فوزية، وتزعمتها الست نجيبة واتهموني بقتلها وإخفاء جثتها، واستدعتني الشرطة تحولوا جميعا ضدي متكاتفين لإدانتي بقتل المرحومة، ولكن خيب ظنهم وكيل النيابة اذ بعد المعاينة والفحص والتحري، أمر بالإفراج فورا بعدما لم يجد دليلا واحدا ضدي، وعندئذ في مواجهة وكيل النيابة أعلنت أن فوزية منذ هذه اللحظة طالق، وبدون أي تحقيق أو سؤال أو عتاب، فهذا ما تستحقه ولابد أنها هربت مع عشيق لها، أؤكد أنها علي علاقة برجل ما لا أعلمه بالطبع، وأني أستطيع الخلاص منها بالطلاق.

فوزية هذه الفتاة الجميلة الرقيقة التي تبكي عندما تهتز عواطفها لأي شيء، والتي أسرتني وتعلقت بها وأعطيتها اسمي وكياني وحبي، تزوجتها أملا في

حياة هادئة مثل كل البشر، لكن عندما مرت الشهور الأولي بدأت تتجنبني، وتتأفف كلما اقتربت منها، وتحولت عاطفتها عني بدرجة ملحوظة، وعندما تفاهمنا كان الحل عند الطبيب الذي أدخلني في دوامة التحاليل والأشعات والمقويات والمغذيات، وأمرها بالصبر والمحاولة ثم أخذت دورتي لدي العرافين والمشعوذين والدجالين، أرجو عندهم الأمل وهكذا بعد مرور السنة كان صبرها قد نفد تماما، وأصبحت محاولاتي كلها هباء فقررت ألا أقترب منها وهي أيضا فعلت ذلك، وهكذا أصبحنا جيرانا بمعاهدة غير منظورة لحسن الجوار ثم نسيت هي هذه المعاهدة وأصبحت تتناساني كثيرا في أشيائي وطعامي، وبدأت تركن كثيرا عند أمها وأختها ثم تعود، حتى أصبح ذلك ثابتا تقريبا واتخذ شكل الجدول، فتبيت عند إحداهن ثلاثة أيام والأخرى ثلاثة ثانية ثم تعود للمنزل ليلة واحدة، فأثور عليها فتنتظم وتعود لما كانت عليه، وصبرني علي ذلك أنها في أمان. في السنة الثانية أثارت غيرتي عندما رأيتها صدفة مع رجل في السيارة قالت أنه زميل لها توصله إلى منزله، ثم مع رجل آخر قالت أنه زوج صديقتها وكأنما الصدفة هي التي تدير الأحداث، فرأيتها مرتين مع رجال آخرين، ولم أسألها بل دفعني ذلك لأن أراقبها، وصح ظني فقد كان هؤلاء الرجال أصدقاء لها، وربما باحت لأحدهم بسري المخيف. وربما هذه أخذت تتشكل في أفكار كثيرة كنت دائما أزيحها حتى لا أغضب، أبرر لنفسي أي شيء لأهدئ من غيرتي وسخطي. ولكن عندما كانت السنة الثالثة تأكدت تماما أن فوزية تخلق العلاقات مع الرجال، وتستمر مع أحدهم شهورا ثم تبحث لنفسها عن رجل جديد، ولكن لم أستطع أن أقطع بأنها خانتني وارتكبت معصية مع رجل منهم، وكل ذلك ارتفع بغضبي إلى قمته.

ذلك اليوم الفظيع الذي اخترته لمراقبتها أخيرا، والذي تأكدت فيه تماما أنها علي علاقة بهذا الرجل الضخم، فقد ركبت سيارته وذهبت معه إلى منزله وبقيا هناك ساعات طويلة، ونزلت وحدها يظهر عليها ما فعلته، ولم يخيل لي ذلك حتى أنها عندما عادت جلست أتفحص فيها أراوغها أن أكتشف شيئا جديدا ليؤكد لي أنها انحرفت بالفعل، وزاد غضبي اللامبالاة التي ركبتها عندما اصطنعت الحديث، وأدرته حتى أخبرتها أني سأطلقها لترتاح مني ومن أفعالي، فظهر علي وجهها السعادة والفرح بالخلاص، ثم بدأت تتودد في الحديث حتى لا أغضب ومازحتني رغما عنها لتنهي الموقف، ساعتها تأكدت تماما وماتت في قلبي.

سنوات عجزي الطويلة جعلتها أقوي مني فأصبحت أطيعها لأتجنب الشجار، ولكن النار تحت الرماد، دائما أتحين الفرصة وبدأت أفكر في التخلص منها بالطلاق، وخفت الفضيحة والخسارة ولم يكن هناك سوي الطريق الآخر أفكر فيه دائما. أصدقائي أصبحوا هم كل حياتي، أقضي معظم وقتي معهم علي المقهى وعند المساء في البار القريب نتجاذب الحديث ونشرب. يظنونني قويا أفعل كل ما أريد دائما، علاوة علي السعادة التي رأوها تغمرني في البداية، ثم حافظت علي صورتي في أعينهم وأعين الجيران لأداري مصيبتي في نفسي ثم في فوزية، أقاومها داخلي حتى فجرت وطال لسانها وتجرأت أفعالها، حتى لم يبق إلا أن تقر

لي مواجهة بما تفعل، ولم يكن هناك بد أبدا مما فعلته. هكذا أبرر لنفسي ما أقدمت عليه ثم أنام في هدوء كل ليلة حتى الصباح.
البوليس لم يتركني في حالي بعد الإفراج عني عندما انتهي التحقيق، بل كان هناك من يراقبني ويتتبعني دائما، وكنت أعرف أنهم سيفعلون ذلك بعد أن أثاروا إعجابي في أعمال الفحص والمعاينة باهتمامهم بالدقائق البسيطة ليجمعوا المعلومات، وكنت أنا الأمهر، وهكذا أفلت منهم متوقعا المراقبة، لذا لم أغير عاداتي ولا الناس الذين أتعامل معهم، ولا الطريقة التي أتصرف بها دائما، فقط زاد عليها القناع المرسوم عليه الحزن والقلق والقهر، والذي جعل الجميع يتعاطفون معي في موقفي، حتى البراءة المطلقة التي لم يعكرها سوي استمرار مراقبتهم، يغيرون الأفراد والأماكن وسيارات المراقبة، وطبعا سيكون ذلك كله بلا فائدة في النهاية عندما يركزون علي جريمة جديدة، فسوف ينصرفون إليها لأمارس باقي حياتي في راحة كاملة أتوقعها قريبا.
يقولون أن من يقتل مرة يصبح أكثر جرأة، ويكون بعدها مستعدا لممارسة القتل مرات بعد ذلك، لكني لا أجد ذلك معقولا، فأنا لم أمارس القتل قبلا ولن أفعلها ثانية لأني لن أتزوج بعد ما كان، وأتعجب كثيرا مما أراه في الشارع عندما أسير، فإني أجدهم سائرين وقد تعلقت يد كل واحدة منهن في ذراع رجل، ولا أدري من منهم سوف يقضي علي الآخر، ولا كيف يتحملون، وبالطبع ليسوا جميعا سعداء وأري ذلك علي وجوههم مرسوما بصراحة أعرفها بداهة من النظرة الأولي، يعيشون كذبة كبيرة لسعادة غامرة جربتها شهورا ثم انقلبت إلى عكسها.. طبعا ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان،أيضا ليس بالجنس وحده يحيا فهناك أشياء أخري كثيرة، وهناك رهبان ورجال أفاضل عاشوا بدونه عمرهم، وهناك المطلقات والأرامل والعوانس، وكلهم تخلصوا من سيطرة الجنس عليهم وعاشوا في سعادة وطهارة. لماذا لم تقنع فوزية مثلهم..؟ إنها الحيوانية التي ركبتها وأبت أن تتخلى عنها من أجلي. هكذا استحقت نهايتها. اذا فلن أتزوج حتى لا أكررها ثانية، فلا أضمن علي الإطلاق أن تكون مثلها أو عكسها، ولا داعي للمغامرة أو المقاومة حتى لا تكتشف إحداهن أمري وأنتهي إلى ما لا أتوقع.
عندما ستعود فوزية من غضبتها هذه المرة سأكون قويا وأنفذ ما خططته بدقة شديدة، ولن أسمح للصدفة أن تتحكم في مصيري، فقد رتبت كل شيء بعد تدبير السنوات وسهر الليالي في تفكير مركز، ولكن قبل ذلك، سوف أمنح نفسي وأمنحها فرصة أخيرة لتصحح هذه الأوضاع الخاطئة التي أزعجتني كثيرا.

* * *

أحببت نجمـــــة

أحــببت نجــمة

هل جربت مرة أن تستلقي علي الأرض في المساء عندما يكون القمر غائباً والسماء مليئة بالنجوم، تتأمل فيها تدقق البصر وتراقب اللمعان ويسرح خيالك في ملكوت الله. هل جربت أن تختار إحداها قريبة كانت أو بعيدة ثم تراها الوحيدة في كل السماء تملأ عينيك فلا يكون هناك غيرها.
يوما أحببت نجمة راقبتها ليالي طويلة لا أري غيرها، وكأن السماء فرغت نجومها، أو أن عيني ضاقتا فلم تسع سواها. عندما أحببت تلك النجمة أصبحت أسيراً لها. لما تأكدت النجمة من حبي هبطت من بعيد رويدا حتى اقتربت فرأيت ملامحها وحجمها، ثم اقتربت أكثر فحجبت كل شيء ولم أعد أري غيرها أبدا.
لما زاد قربها أحسست بالخطر ولابد أني استسلمت كثيرا فهوت علي كياني كله لتضغطني إلي مالا نهاية، وأحسست تحت تأثيرها أني أرق وأتمدد ليصبح جسدي كالورقة، ورجلاي وذراعاي، وصدري ودماغي أيضا، لا ..عقلي أصبح مبططا هو الآخر.
عندما وصلت إلي هذه المرحلة لم يكن في قدرتي المقاومة علي الإطلاق ولبثت أتحمل ضغطها فوقي، أتنفس من مسام جلدي ما يسمح لي بالحياة التي عز علي أن أفارقها بهذه الطريقة، واكتشفت بعد السنوات أنه كان من الخطأ أن أحب النجمة.

***

شـــادي الكلمات

أعرف أن الكلمة كانت البداية .. حرفان فقط ثم كان الكون. الكلمة كانت فكرة توحدت مع الإرادة فإن رفضتها انعدمت، وإن قبلتها تحرك اللسان ونطق لتصبح الفكرة كلمة تترجم إلي المعاني والحركات. وعندما تخرج الكلمة فإنها تصبح غير مملوكة لصاحبها .. مشاعا للجميع، وعلي صاحبها أن يتلقى ردود الفعل تنعكس عليه، تفيده أو تضره، تسعده أو تشقيه، ليبدأ التفكير ثانية وتخرج كلماته مرة أخري عبر اللسان .

(من كلمات ولسان)

عصام الصاوى ومجموعته
رقصة الجنرال

رقصة الجنرال وأدب الحرب

تكشف المجموعة القصصية (رقصة الجنرال) عن طاقة فنية يمتلكها الكاتب عصام الصاوى تتضح في إحساسه بالموضوع، والبساطة في السرد والحكي، واللغة السهلة ذات التراكيب القريبة، وهذا الإحساس هو الذي يجذب القارئ إلي معايشة العمل الفني والدخول في أبنيته التركيبية. ولقد وشي النص القصصي بجدل قائم ومستمر بين الرجل والمرأة في ثنائية جدلية، تبوح بصراع يتسم بالعنف أحيانا، وبالمقت أحيانا أخري .. مع قليل من لحظات الصفاء المنسربة عبر هذا الصراع، وهي لحظات شحيحة تنبئ عن عجز في الذات حين تستعرض مكابدات الأيام عن طريق الحلم، الذي هو أداة فنية يستخدمها الكاتب لتوصيل حالات من الإحباط لدي الذوات البشرية التي تعاني نوعاً من الهم الواقعي أو النفسي، أو تشعر بنكوص طفولي، يدين حركة الواقع في جهامتها أو تشابكها المشين أو افتقادها لنوع من البراءة وطهارة القلب.

ولأن الكاتب قد عايش عن قرب تجربة حرب أكتوبر المجيدة، فلقد رصد في سخونة وحميمية لحظات الحرب، وهي لحظات خاصة جداً، لأنها تتناول حصار مجموعة بدر في تلك الحرب، وأفاض الكاتب في سرد لحــظات الشجن والحزن، والغربة، والمكابدة، والتوق إلي الخلاص، والرغبة في لقاء الأسرة، الزوجة والأولاد .. والحنين الي مفردات لها علاقات خاصة معه .. وواكبت تلك الصراحة في المشاعر لغة تفيض بعذوبة جميلة، وتراكيب تحمل أنساقا ذات طابع شاعري، فالموضوع يصنع لغته .. وجاءت القصة في آلية سردية تختلف عن كل ما كتب في مجموعته، جاءت القصة في رسائل متتابعة يصف فيها الكاتب لحظات الصمود والحنين معاً، فانتقلت الشحنة الوجدانية إلي القارئ، وأدت القصة دورها الجمالي والموضوعي.

يتحدث الكاتب في قصته عن عذابات الحصار فيقول »نطيل أفراحنا وابتساماتنا، ونبتر خوفا لا يدوم إلا لحظة، لا أدعها تتملكني، فإنه لو حدث فلابد أن أجن، أو أمرض، أو أموت، أجابهها ألا تركبني، وأضع طاقتي في عيني أو أذني أو لساني، أفعل ما يجب أن يكون. أتداخل فيهم، في أرواحهم، نتماسك، نتقوي، وهي لحظة، إن مرت حصلنا علي نصر، وإذا لم تمر فسوف نموت .. وها أنا أكتب ومازلت حيا«.

تلك هي اللغة ذات التراكيب القصيرة، الممتلئة بالعاطفة المواكبة للحظات الحصار المادي والنفسي معا، فالفعل الإرادي مطلوب لخلق لحظات الأمل والفرح، والتداخل بين الذوات ومن ثم انزياح الخوف الذي إن سيطر نهش القلوب كالوحوش .. تلك لحظة خاطفة، لكنها سرمدية، لحظة أن يحدث الاندماج الروحي بين الجميع ليصنعوا صفا صلداً لا يخترقه هوس النفس وقلقها .. وهذا الإلحاح والإصرار النفسي علي الفعل وراء الإلحاح التعبيري المصاحب "أتداخل فيهم، في أرواحهم، نتماسك نتقوي".

ومن ثم فلقد صمدوا وحصدوا نصْراً غالياً حين استطاعوا المقاومة في لحظات الحصار الطويلة، وصنعوا بفعلهم المشاركة الوجدانية التي جعلتهم يذوبون في مساحة البشر، ويصنعون ثوبا يسترهم جميعاً..

جاءت الرسالة الأخيرة بعنوان " تحية إلي سائق التاكسي" لتشير إلي هذا الاندماج الروحي وتؤكد أن ما بذله الرجال الأبطال تسلل إلي الوجدان وقبض عليه أفراد الشعب. "أمام منزلي

نزل السائق وصافحني بقوة يعبر عن مشاعره الجياشة، ولما قدمت له النقود تراجع الرجل متعجبا وأطرق ورأيت في عينيه دموعاً تلمع. وقال أنه لم يشترك في الحرب، ولا يريد أن يحرمه من هدية يقدمها لبطل من قوات بدر."

ولا يغيب عن ذهن الكاتب ما يدور بين المحارب وبين زوجته من مشاحنات تندرج تحت ثنائية كبري تشغل عمله كله وهي ثنائية الرجل والمرأة. تلك الثنائية الحاكمة في إحالاته إلي الواقع أو في تكوينه القصصي المتخيل والمرتبط بوشائج قوية بين الفعل الفني ومساحة الحياة. ففي قصته (رقصة الجنرال) يتراوح السرد بين موقفين متجادلين، الجنرال وهو يري أولاده يكبرون، وتمني لو رقص رقصته الكبري فلقد حقق أحلامه، الجاه، والثروة، والمركز، والأولاد، وكان يخاف الفشل الذي يمثل له الموت .. في حين أحست زوجته بالفراغ القاتل حتى كرهت البيت وامتدت الكراهية حتى طالت زوجها الجنرال، وشرخت العلاقة بعد ما تقاعد عن عمله وراحت تحسب سنوات الزواج الفعلي فلم تجدها سوي سنتين ونصف السنة، واكتشفت أنها لم تعش حياتها كما تتمني فانفصلت وانحازت الابنة إلي الأم. وظلت أمنية أن يرقص كامنة في داخله حتى فاضت به فرقص دامع العينين ــ في زفاف ابنة صديق له ..

وفى قصة"حامل الوسام" تكشف اللغة القصصية حالة من الفخر بالذات، وبالفعل الذى قدمه فى عمليات حربية استحق عليه الوسام..

فى بهو العيادة الطبية العسكرية يرصد الكاتب ملامح الآلام التىتلوح على الوجوه التى تحتاج إلى أجهزة تعويضية كالذراع والساق.. أطراف صناعية بديلة، لأجزائهم العضوية التى فقدوها فى حرب اكتوبر ١٩٧٣

يحدث نفسه قائلا (كلنا نحس بأن إصاباتنا أوسمة نحملها، نزهو بها..) .

وعبر حوار قصير تزاحمهم مفردات العولمة المتمثلة فى الغزو الاستهلاكى وترويج المنتج الأمريكى.. (انتشرت فروع كنتاكى فى مدن كثيرة. وأصبح الذين قبضوا على وهج النصر بدمائهم وأرواحهم حيارى أمام المتغير العالمى الجديد.

ولأن الكاتب يستبطن الذات المهمومة فلقد شعر بأن حاملى الأوسمة قدموا تجربة هامة فى إعادة الانتماء للوطن. مع أنهم يشعرون بأن هذا الانتماء – مدفوع الثمن بالروح - بات مهددا ، ترى ما هو ثمن الساق التى فقدها فى الحرب ؟ هل هو سندوتش هامبرجر ؟

ويغوص الكاتب فى داخل الذات فى لحظة نفسية شفيفة ليقف على الموقف الدرامى والذى أدى إلى بتر الساق (استطعت التقدم محققا كل المهام ..وكنا نعيش لحظات انتصارنا.. فاجأتنا قذائف مدافعهم.. انهمرت دانات المدفعية.. وشظية كان مقدرا لها أن تمر خلالى واختارت ساقى اليسرى..)

وراح يتيه بساقه الصناعية التى يحمل عليها أحفاده (.. وأحكى بطولاتنا التى أريد غرسها فيهم) ..

هذه اللوحة الانسانية العامرة بالفخر والعزة والتى يفيض منها شعور بالحزن لما جرى للوطن بعد الانتصار .. الذى لم يستثمر كما يجب ..

وصاغ الكاتب هذه التجربة فى لغة سهلة وموجزة، وعبارات قصيرة مكثفة، وسريعة لتنحية أدوات العطف، وغلب على المتن السردى الحوار الذى يكشف عن طبائع الشخصيات ومايترسب فى الوجدان من آلام شفيفة..

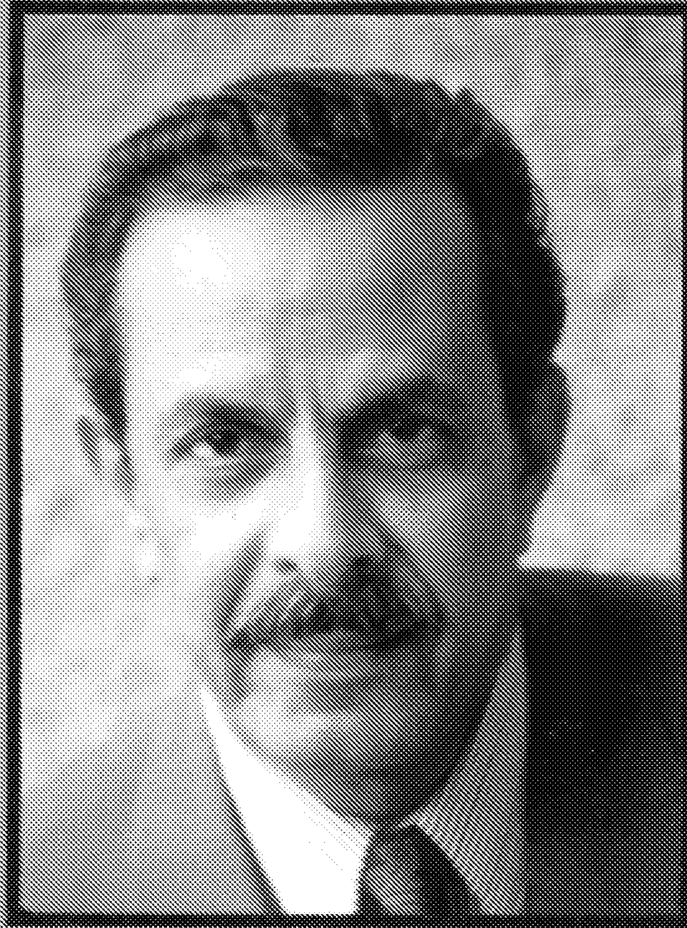
والقصة (رقصة الجنرال) نموذج لبعض قصص الكاتب الطويلة نوعاً ما، والتي يلجأ فيها الكاتب الي ذكر التفاصيل الكثيرة، وسرد حياة بأكملها. ولمس الذات لمسا خارجيا دون التركيز علي موقف ما يتسم بالثراء والتنوع. الذي أدي إلي تدخل الكاتب ــ أحيانا ــ للشرح أو التوضيح مع أن الانتقاء أمر هام في العمل الفني، وأن كثيراً من الأحداث يجب أن يزيحها الكاتب ليبقي علي حدث له من العمق والتنوع ما يثري العمل الفني .. ولعلنا نلاحظ هذا

التدخل المباشر في قصص مثل (استقالة ابتسام)، وقصة (فوزية ماتت مرتين) .. فمع أن هذه القصة ذات بناء تركيبي ونفسي متميزين إلا أن الكاتب بتر الشحنة النفسية حين علق علي القصة بقوله (طبعا ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. الخ)، فبطل القصة عاجز والزوجة متمردة وكارهة. والرغبة في قتلها كانت فيه واستطاع الكاتب باقتدار أن يدخلنا أتون تلك التجربة. وظللنا نتابع لاهثين جريمته ..وقد استخدم الحلم وسيلة فنية صنع بها جريمة دلالة علي العجز.

والحلم عند الكاتب آلية فنية متميزة. استطاع أن يستغلها فنيا استغلالاً جيداً.. فكشف بذلك عن مساحات في النفس البشرية مطمورة تحت أردية شكلية من الأخلاق ومواصفات المجتمع تمثل ذلك في قصص (حوار الأربعة، وكلمات ولسان وأحببت نجمة، ولحظة صدق) وغيرها من القصص التي تميزت بالتركيز والشفافية. ولعل قصة لحظة صدق تكون نموذجاً لذلك، فمع أنها متشابكة بين الراوي والمرأة والطفل، إلا أن السرد الكلي ينبئك ــ في شوق واضح ــ بما يتعامل به المتلقي مع النص، ويمعن المؤلف في ذلك لنعلم أن كل الحركات التي يتخيلها الذهن ــ أحيانا ــ ليست إلا حركات طفل تأخرت أمه عن إرضاعه.. فتتعجب لهذا الهوس الذي شغلك أثناء القراءة.. وهي طاقة فنية يتميز بها الكاتب عصام الصاوي..

إن مؤلف قصص المجموعة بادر بالقيام بدوره في إقناع القارئ وفي تصوير الشخصيات تصويراً فنيا، وفي الاقتراب من التحولات الاجتماعية التي رصدها في أناة وتمهل وقدم نصاً لغويًا بسيطا وجميلاً ومؤثراً وسجل بنصه هذا وبنصه السابق (سور القاهرة الوردي) قدرته علي الحكي الفني الجميل فاستحق كلمة نجيب محفوظ في تقديمه له: (أقدم لسيادتكم الأستاذ عصام الصاوي كصوت جديد في القصة القصيرة علي مسئوليتي).

محمد قطب



إن مؤلف قصص المجموعة بادر بالقيام بدوره في إقناع القارئ وفي تصوير الشخصيات تصويراً فنياً ، والاقتراب من التحولات الاجتماعية التي رصدها في أناة وتمهل وقدم نصاً لغوياً بسيطاً وجميلاً ومؤثراً ، وسجل بنصه هذا وبنصه السابق «سور القاهرة الوردي» قدرته على الحكي الفني الجميل فاستحق كلمة نجيب محفوظ في تقديمه له «أقدم لسيادتكم الأستاذ عصام الصاوي كصوت جديد في القصة القصيرة على مسئوليتي».

الناشــــر